ملخص تاريخ التشريع الإسلامي

للشيخ الشهيد سعيد رمضان البوطي

مشاركة زوار

أهمية دراسة الموضوع: ما هي الفوائد المتوخاة من دراسة الموضوع؟

نقصد بتاريخ التشريع الإسلامي: هو كيف ولدت الشريعة؟ ومن أي مصدر ولدت؟ وما هي مصادرها الأساسية وكيف يمكن أن نتعرف عليها؟ وكيف تطورت ووجدت فروع لها وكيف استتبعت بوجود المذاهب؟ لا سيما المذاهب الأربعة الفقهية ما الداعي لوجودها ولمَ التمسك بواحد منها؟ ولمن يكون هذا التمسك؟ وكيف سار تطور الاجتهاد التاريخي في التشريع؟ وهل وجد في عهد رسول الله أم بعده؟ وإن وجد ما هي ضوابطه وكيف واكبَ هذا الاجتهادُ تطوُّرَ الشّريعةِ الإسلاميّة؟ وهل تقلص فيما بعد؟ وما هي العوامل التي أدت إلى تقلص الاجتهاد؟ وهل نملك أن نقول أن باب الاجتهاد اليوم مغلق أم يمكن لأحد أن يفتحه؟ أم هو مفتوح على مصراعيه بدون قيد أو شرط؟

الفائدة المتوخاة: الحاجة التي أدت إلى نشأة المذاهب؟ والحاجة التي تدعونا إلى التمذهب إلى إحدى هذه المذاهب، والموقف الذي ينبغي أن نقفه من موقف الشريعة.

الموضوع 1: تاريخ التشريع الإسلامي:

التشريع الإسلامي اصطلاحاً: هو مجموعة الأحكام التي تنزلت من عند الله سبحانهُ وتعالى وخاطَبَنا اللهُ عزَّ وجلَّ بضرورةِ تنفيذِها لقولهِ تعالى:)(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها)).. أما الفقه هو مجموعة أحكام إجتهادية للأمة ولست مطالب بتنفيذها. والأحكام الفقهية التي قننتها الدولة تسمى شريعة.

الشّريعة لغةً: هي الطريق المعنوي أي المبدأ الذي يسير عليه الإنسان في حياته.

والشريعة تنطبق على وضعين، تشريع سماوي وتشريع وضعي.

الوضعي: هو جملة القوانين والنظم التي تجتمع الأمة على اتخاذها، وعلى الأخذ بها عن طريق الدولة

التشريع السماوي: أي الأتي وحيا من عند الله سبحانه وتعالى وهو الذي نتحدث عنه.

ما هو المصدر الأساسي لتشريع الرباني؟ إنه الوحي وينقسم إلى قسمين هما

وحي متلو: وهو وحي تنزل ضمن قوالب لفظية من عند الله عز وجل وتلقاها المصطفى صلى الله عليه وسلم ونقلها إلينا وهو القرآن.

وحي غير متلو: وصلنا معاني تتضمن أحكامًا أمرنا الله عز وجل بأن نأخذ أنفسنا بها جاءتنا عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي التي صاغها رسول الله بعباراته وهي السنة.

ينبغي أن نعلم أن المعرفة في قسم كبير منها تعتمد على الوحي منها الأمور الغيبية. وهناك أمور مادية تخضع لتجربة والبيان يمكن معرفتها بدون وحي.

التشريع السماوي الصالح لكل زمان ومكان هو المحقق للعدالة الاجتماعية، وولد هذا التشريع مع بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم وتكامل شيئا فشيئاً.

التشريع في مكة: كان التشريع يتمثل في العقائد، ويتمثل في معرفة الإنسان للكون وذاته، ومن ثم لإلهه الحقيقي الذي ينبغي أن يدين له بالولاء، وهذا لمدة ثلاثة عشرة سنة، وهذا لأن التأسيس يأخذ مدة أكبر من البناء الذي يبنى فوقه، والأساس في الغالب يكون خفياً. وأحكام الشريعة السلوكية الحلال والحرام لا يمكن أن تستقر ويأخذ الإنسان بها، إلا بعد أن تستقر في فكره حقائق العقيدة وحقائق الإيمان بالله عز وجل، وحقائق عبودية الإنسان لله عز وجل، ومصيره بعد الموت، النشر الحساب الموقف بين يدي الله، السير على الصراط ثم المآل الذي لا نهاية له، إما النعيم الذي أعده الله عز وجل للمتقين، وإما العكس.

ولما ترسخت العقيدة في عقول الناس وتحولت إلى عاطفة وجدانية سرعان ما نفذوا أحكام الله عز وجل. من تحريم الربا والخمر... وكثيراً ما نجد العكس اليوم والسبب أن العقيدة لم ترتكز في العقول ولم تتحول يقينًا إلى وجدان في القلوب.

التشريع في المدينة المنورة: قد تحول هنا إلى بيان أحكام الحلال والحرام، العبادات المعاملات، أحكام الأسرة والميراث، قانون العقوبات، العلاقات بين المسلمين وغيرهم، الأحكام الاقتصادية كل ذلك وجد وتكامل خلال عشر سنوات وعندها أنزل قوله تعالى:)(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا)).

وهذه آخر آية نزلت في التشريع، وآخر آية أنزلت هي قوله:)(واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون)) /سورة البقرة/.

سلطة التشريع في المدينة المنورة كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

(الدرس2): عصر الصحابة:

الدور الأول: حديثنا في الدور الأول من تاريخ التشريع هو:

1. حياة النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه:

سلطة التشريع كانت لرسول الله أما مصدر التشريع هو الوحي، الذي ينقسم إلى قسمين متلو وهو القرآن وغير متلو السنة، المعنى في كلاهما من الله عز وجل إلا أن الأول ألفاظه من البارئ والثاني بيانه من الرسول صلى الله عليه وسلم.

ما هي السنة؟ لغة هي الطريقة المعنوية أي المبدأ الذي يسير به الإنسان بفكره.

اصطلاحاً هي تلك الأحكام التي يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها فقهياً، أما في أصول الفقه أي علم تفسير النصوص السنة معناها كل ما أثر عن رسول الله بسند صحيح من قول أو فعل أو تقرير، قد يكون واجب أو مندوب أو مباح.

أحكام تبليغية: هي أشياء بلغنا إياها رسول الله بوصف كونه مبلغًا عن الله هذا كله يدخل في السنة التبليغية، وحكمها أنها باقية إلى يوم القيامة وأي فرد تلقى هذا الأمر من رسول الله يطبقه على نفسه ولا أحد بإمكانه تغيير هذه السنة لقوله مثلا:)من سبق إلى مباح فهو أحق به".

أحكام الإمامة: وهي أشياء أمرنا بها أو نهانا عنها بوصف كونه إمامًا للمسلمين وهي داخلة في السياسة الشرعية، وهي أمور يتحكم فيها رسول الله بما يراه المصلحة، مثل سياسة الجهاد القتالي، الرسول يختار الوقت والكيفية ويعلن الصلح متى شاء، ويسوس أمر الأسرى حسب مصلحة المسلمين، وتوزيع الغنائم.

هناك أمور محل خلاف أهي أمور تبليغية أم أحكام إمامة مثل قول النبي:)من أحيا أرض ميتة فهي له". الشافعي يرى أنه قال ذلك بوصف كونه مبلغ عن الله. أبو حنيفة قال: لا بل قالها النبي بوصف كونه إمام المسلمين. النبي لما هاجر للمدينة قال للأنصار:)من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه". انتهينا إلى أن الرسول لما استقر به المقام بالمدينة المنورة كانت له شخصيتان شخصية مبلغ عن الله وشخصية إمام الدولة. الإسلام دين ودولة.

الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجتهد عندما يغيب الوحي، كل ما قضى به رسول الله بالنسبة لنا حق، ولكن بينه وبين الله يمكن أن يخطئه الله عز وجل مثل ما حدث بشأن خولة وزوجها رضي الله عنهما. حيث لما قال لها ما أراك إلا قد حرمت عليه. ينبغي أن تطيع النبي. وأنزل الله تعالى قوله أنه ظهار وليس طلاق.

(الدرس3): اجتهاد الصحابة:

والصحابي بحضور النبي لا سبيل له للاجتهاد وبغياب النبي له أن يجتهد. ثم فيما بعد إما يصوبه النبي أو يخطئه فيما ذهب إليه. وأدلة اجتهادهم منها ما رواه أبو داود والترمذي وآخرون،

ـ أن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل معاد إلى اليمن، وقال له أثناء توديعه له:(بما تقضي يا معاد؟(قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال:(فإن لم تجد؟(قال:(أجتهد رأيي ولا ألو أي لا أقصر. وقال له رسول الله:(الحمد لله الذي وفق رسولِ رسولَ الله لما يرضي رسول الله.

ـ كذلك ورد في الصحيح أن صحابيين كانا في سفر فحضرت الصلاة ولا ماء و صلا، ثم ظهر الماء. الواحد منهما توضأ وأعاد الصلاة، والأخر لم يعد لها، وعندما وصلا إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام أخبراه بما صنعا قال للأول الذي لم يعد الصلاة)أجزأتك الأولى. وقال لثاني كتب الله لك أجرين.

ـ وصح أيضا في البخاري فيما يرويه سيدنا عمر ومعاد أنه أرسلهما رسول الله في مهمة في الطريق أحوجهما الماء وأرادا الماء وكل منهما عانى من الجنابة، وأما عمر فصلى هكذا بدون ماء، وأما معاد فتمرغ في الترب، لما عادا إلى المدينة المنورة، وذكرا لرسول الله، فقال لمعاد: وإنما كان يكفيك ضربتان، وتمسح بهما وجهك، ودله على كيفية التيمم.

الدور الثاني:

2.الصحابة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام: مصدر التشريع دائما هو كتاب الله والسنة، ومن حيث القيمة كلاهما واحد، لكن من حيث اقتباس الأحكام هنا نرجع أولا إلى القرآن، ثم السنة، هذا الترتيب يعني الأدب مع كتاب الله سبحانه وتعالى. حيث إذا وقعنا في مشكلة نرجع إلى كتاب الله، وإذا غم علينا الأمر نرجع إلى التفسير، وحتى إن وجدنا الحل لمسألتنا في القرآن، نرجع إلى السنة

أيضًا حيث قال الله تعالى:)(نحن نزلنا إليك الذكرى لتبين لهم))، في كثير من الأحيان تفصيل المسائل نجده في السنة.

نلاحظ أن هناك فارق بين الشطرين من هذا الدور أي حياة الصحابة مع النبي وحياتهم بعده، وهو الخلاف الذي لم يكن موجودا والصحابة مع النبي. والخلاف ظهر في الأحكام السلوكية وليس العقيدة. والأسباب هي:

1. أنه في السنوات الأولى من نزول القرآن الرسول نهى عن كتابة غير القرآن والسنة لم تكن تكتب، لأن الصحابة لم يتفرسوا بعد بين أسلوب القرآن وأسلوب السنة، فخاف الرسول أن يمزجوا بينهما، لهذا نهاهم عن كتابة السنة. وبعد ثلاث سنوات أذن لهم بكتابتها. وعبد الله بن مسعود من كتاب السنة حيث قال له الرسول:)أكتب فإنه لا يخرج منه إلا حق".

2. بعض الصحابة قصروا في كتابة السنة والبعض أوغلوا في كتابتها لهذا كان الخلاف بينهم.

3. هناك تفاوت بين الصحابة في حفظ السنة مثال ذلك أبا هريرة من أكثر الناس رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. حيث يقول لنا أبا هريرة فيما يرويه مسلم في صحيحه عنه:)أنتم تقولون أن أبا هريرة يكثر من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والموعد بيننا الله، كان المهاجرين والأنصار في الأسواق وكنت أخدم رسول الله على ملأ بطني لهذا كنت أكثر رواية عن رسول الله). من كثيرين كذلك يروي البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال مرة لأبي هريرة:)ألا تسألني من هذه الغنائم التي يسألني عنها أصحابك"؟ ويقول له أبا هريرة:)إني أريدك أن تعلمني مما علمك الله). عدد الأحاديث التي أحصيت عن أبا هريرة رضي الله عنه ما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم ثلاث مائة وخمسة وعشرون حديث. وما انفرد به مسلم من رواية أبا هريرة ثلاث وتسعون حديث، وما انفرد به البخاري مائة وتسعة وثمانين حديث. المجموع خمس مائة وسبعة حديث. أما مجموع ما رواه أبا هريرة خمسة آلاف وثلاث مائة وسبعة وعشرين حديث.

4. من عوامل الاختلاف نسيان الحديث منهم من ذاكرته أقوى من الآخرين لأسباب منها الانشغال بأمور الدولة هذا لا يتيح لهم الذاكرة النقية الصافية التي تحققت للذين تفرغوا لرواية عن رسول الله. يروي مسلم أن رجلا أتي عمر رضي الله عنه فقال: إني أجنبت فلم أجد ماء ماذا أفعل؟ فقال لا تصلي، وكان في المجلس)عمار بن ياسر) رضي الله عنه فقال:)أما تذكر يا أمير المؤمنين لما كنا أنا وأنت في سارية أرسلنا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم نجد ماء أما أنت فلم تصلي أما أنا فتمرغت في التراب. فسألنا رسول الله...(إلى آخر الحديث. فتذكر سيدنا عمر.

5. من العوامل أيضا اتهام الراوي. حدث أن امرأة اسمها)فاطمة بنت قيس) قالت لعمر رضي الله عنه:)إن زوجي طلقني فبتَّ طلاقي، فلم يجعل لي رسول الله نفقة ولا سكنى". سيدنا عمر كان يعلم خلاف ذلك:)(أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم))، قال:)لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لامرأة لا ندري أحفظت أم نسيت). وربما آخرون وثقوا بها لهذا هذه المسألة فيها خلاف.

أضيف إلى مصدري الكتاب والسنة مصدر الإجماع، وأيضا بدأ إعمال دليل أخر وهو القياس.

(الدرس 4)

دسيسة تظهر وتختفي حسب تزايد أو تناقص الوعي الإسلامي وهي قول:)أن المصدر الوحيد للإسلام هو القرآن الكريم). أصحاب هذه الدسيسة يتظاهرون أنهم شديدي التمسك بالقرآن الكريم، وبأنهم لا يبتغون بالقرآن بديلاً، لكن السنة لا لأن فيها ضعيف وموضوع وغيرها ويختلقون مبررات كثيرة ليهموا أن السنة لا تقوى أن تكون في هذا العصر مصدرا لتشريع، ولا يوجد في المسلمين بإذن الله من تنطوي عليه هذه الخديعة والله عز وجل يقول:)(إن أنزلنا عليك الذكرى لتبين لناس ما نزل إليهم))، ويقول:)(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول))، ويقول:)(إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله))، وآيات هذا المعنى كثيرة جداً، والذي يعتد بالقرآن حقًا ويغار عليه ويستمسك بالقرآن حقا لا بد أن يستجيب لأمر القرآن. الذي يأمرك أن تجعل من السنة بيانا لما جاء مجملا في القرآن. هنا يأتي ويخادع بقوله الله تعالى يأمر الصحابة والتابعين بإتباع السنة لأنها آنذاك كانت نقية، لكن في القرون التي جاءت من بعد اختلط الحابل بالنابل، لم تكن هناك سنة صافية خالية من الشوائب يمكن الرجوع إليها كي نتخذ منها بيانا للقرآن. نقول لهم هل القرآن خطاب لجيل الصحابة فقط أم خطاب للأجيال إلى يوم القيامة؟ كان رسول الله خاتم الأنبياء والقرآن خطاب لناس إلى يوم القيامة. إنهم أناس يتألهون على الله والعياذ بالله. ونقول من هذا الذي يصدق أنه في السنة لم يوجد علماء أثبات الذين سخرهم الله عز وجل لدينه، من لم يغربل السنة النبوية ويفصل بين الصحيح منها والضعيف والمنكر والموضوع، ومن لم يفرق بين الآحاد والمتواتر والمشهور، من هذا الذي يستطيع أن يزعم ذلك؟؟ هؤلاء العلماء أوجدوا قواميس ترصد الأشخاص ما يسمى بعلم الرجال أو الجرح والتعديل ما لم يوجد في الغرب وحار له علماؤهم. كل هذا الغرض منه جس النبض وامتحان الوعي لدى المسلمين، ويؤبون دائما بخيبة الأمل، والوعي الإسلامي في تحسن والاختلاف في الاجتهاد مظهر من مظاهر رحمة الله ولطفه.

من عوامل ظهور الخلاف نضيف أيضا:

6. هجرة كثير من الصحابة من الجزيرة العربية حيث ظهرت الفتوحات، ومنهم من دعوا إلى الرحيل إلى العراق ومصر أي تفرق الصحابة في البلدان التي شاء الله أن تفتح ويصل إليها عبق الإسلام ونور الهداية. وهذا ما جعلهم يختلفون في المسائل وهم متفرقون عن بعضهم البعض، واجتهاد تهم مقبولة.

7. وجود مشكلات لم تكن موجودة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وسبب وجودها اتساع الفتوحات الإسلامية، وتنوع العادات والأعراف من بلاد إلى أخرى.

إن هذا الاختلاف هو مظهر غنى في الشريعة الإسلامية، وفي عهد رسول الله عندما كان الصحابة يجتهدون وهم بعيدون عنه لم يوبخ أي واحد منهم، وما أدل على ذلك مند قول المصطفى لصحابة لا يصلينا أحدكم العصر إلا في بني قريظة ما حدث بعد غزوة الأحزاب، مجموعة اتجهت بسرعة لتصلي العصر في بني قريظة، فئة تأخرت لسبب ما ن وجدوا أنهم إن سمعوا لتعليمة الرسول فإنهم لن يصلوها إلا قضاء، فئة فهمت أن يصلي العصر في بني قريظة، وفئة قالت لا بل نصلي العصر كي لا نقع في خطأين التأخر في الوصول والصلاة. وعندما أخبرت المجموعتين بما فعلت لم يعنفهم بل قال كلا المجموعتين مثابتين على اجتهادهما.

في الاختلاف الاجتهادي الفقهي هذا المثال: فئة تسير في بيداء شاسعة متجهة إلى بلد في سفر أعوزهم الماء، فتفرقت الفئة إلى مجموعات بحثا عن الماء، وهو نوع من تفرق تجمعي من أجل غاية واحدة، واختلاف العلماء المسلمين في المسائل الاجتهادية من هذا القبيل تماما.

بعد وفاة رسول الله وجد مصدر أخر وهو الإجماع، قضايا اجتهادية خلافية أمكن المختلفين أن يلتقوا فيتذكروا ويتناقشوا فيها، فإذا بهم كلهم قد اتفقوا على رأي اجتهادي واحد، ونشر فأصبحت قوته مثل قوة النص القرآني الواضح الدلالة.

(الدرس5)

بالنسبة للقرآن: فإن الدور الذي ظهر بعد وفاة الرسول وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه، ثم جمع القرآن بين غلافين وكلف بذلك)زيد بن ثابت). وفي عهد سيدنا عثمان ثم نسخ سبعة نسخ على ضوء ما كتبه زيد ووزعها في أمهات الأمصار.

أما بالنسبة للسنة: فإن جل الصحابة رأوا،أن سنة المصطفى أصبحت في مرحلة الخطر، بسبب اتساع رقعة الإسلام وانتشاره، وهؤلاء المسلمين يتلقون أحاديث المصطفى، لكن المشكل ربما لم يتمكنوا من حفظ الحديث وخانتهم الحافظة، ووجدوا أنه من الخير أن تقل رواية الحديث. وسيدنا أبا بكر من المتحمسين لذلك، حيث جمع في أولى أيام خلافته ثلة من الصحابة وقال لهم إنكم تختلفون في كثير من المسائل، والذين سيأتون من بعدكم سيكونون أشد اختلاف منكم، وإذا اتجهتم إلى حيث تتجهون فأقلوا من رواية الحديث، ووجهوا الناس إلى كتاب الله ما وسعكم ذلك. ونفس الموقف كان من سيدنا عمر وخاف الصحابة أن يتلقى المسلمون من مختلف الأماكن أحاديث المصطفى من فم الصحابة ثم لا يتمكنون من استيعابها وحفظها فتتبخر، وتضيع بين الراوي والمروي له.

)هناك اليوم من يتوكأ على هذا الموقف من الصحابة هاهم أصحاب رسول الله كانوا لا يبتغون بالقرآن بديلا، فنحن أحرى أن نتخذ الموقف ذاته وخاصة وقد ابتعدنا عن ينبوع الإسلام ومصدره أربعة عشرة قرنًا إذا ينبغي أن نكون على النهج ذاته ونجعل القرآن المصدر الوحيد).

سيدنا أبا بكر كان مضرب المثل في تمسكه بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، يروي الحافظ الذهبي في سنده عن سيدنا أبي بكر: أن جدة أتت إليه تلتمس منه أن تورث. فقال لها:)لا أجد في كتاب الله عز وجل شيئًا، ولا أعلم لك في سنة رسول الله شيئًا). ثم إنه سأل أصحاب رسول الله فأقبل إليه المغيرة بن شعبة يقول:)سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل لها السدس)، فرجع عن رأيه وعمل بهذا الذي جاءه من كلام رسول الله. مواقف كثيرة لسيدنا أبا بكر تبين مدى تمسكه بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم. سيدنا عمر أيضا كان إذا أرسل رسل إلى البلاد النائية يحذرهم من كثرة الرواية خوفًا من عدم انضباط الرواية بين الراوي والمروي له. وكل هذا دليل على اهتمامهم الشديد بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

طريقة الاجتهاد في عصر الصحابة: كان الاجتهاد عند الصحابة وخاصة المفتين منهم أمثال)عبد الله بن ثابت) و(عبد الله بن مسعود) و(عبد الله بن عباس) أنهم لا يفتون إلا في الوقائع التي وقعت فعلا ولا يلتفتون إلى من يقول لهم:)أريت لو حصل كذا وكذا ما الحكم)؟ يضيقون ذرعاً

بهذا. لماذا؟ لأن الجد في هذا الموضوع يقتضي العمل على حل معضلات واقعة. أما البحث في أحداث لم تقع يعد ترفًا. ولما اتسعت رقعة الإسلام وكثرت المشاكل واختلط الواقع بالمتوقع وإذ)بعبد الله بن مسعود) يقول:)كنا ذات يوم لا نجيب عم ما لم يقع بعد، ولكن نظرنا فوجدنا أن الأمور اختلطت)، عندها بدأ يجيب لأن الظرف فرض على الصحابة ذلك.

ـ الصحابة رضوان الله عليهم أثناء اجتهادهم يرجعون أولا إلى القرآن، ثم يعودون إلى السنة في الدرجة الثانية لتبيين ما قد وقفوا عليه في القرآن، وإذا لم يجدوا مطلبهم يجتهدوا بعد ذلك، أي يقيس الأمور على مشبهاتها، وينبه السائل أن هذا رأيه، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي وأستغفر الله.

ـ عبد الله بن مسعود سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها قبل الدخول بها، ولم يعين لها صداقًا ما حق الزوجة هنا؟ فقال:)أقول بهذا رأي تعطى المهر مثل مثيلاتها من النساء لا وكث ولا شطط وهذا رأي وإن أخطأت فأستغفر الله). سيدنا علي قال:)لا ترث وتعتد ولا شيء لها).

ـ سيدنا عمر رضي الله عنه لقي شخصاً وكانت له مشكلة قال له ماذا فعلت؟ قال:)سألت عنها سيدنا علي رضي الله عنه فأفتاني). فقال له:)لو عاد الأمر إلي لذكرت غير ذلك). ويبقى هذا رأي ولعله رأيه هو الصواب. المسلم لا يعتد برأيه ويجعل كل المخالفين مارقين مبتدعين بعيدين عن الحق، فإن هذا خطير يمزق وحدة الأمة، ويحيلها إلى خصومات وأحقاد.

نماذج الخلافات لبعض الأحكام في عصر الصحابة: إن كلمة رأي في عهد الصحابة تساوي بدقة كلمة قياس. ومن نماذج القضايا الفقهية الإجتهادية التي وقع فيها خلاف في عصر الصحابة ما يلي:

ـ طلاق الفرار أثناء مرض الزوج: زوج مريض ظن أنه سيموت ويكره زوجته ولا يريد أن ترثه فيطلقها ثم مات ما الحكم في هذا؟ سيدنا عمر أفتى بأنها تعتد وترثه لكن إذا مات أثناء العدة.

سيدنا عثمان قال:)لا ترث منه مطلقا) مادام طلقها أثناء مرض الموت ترثه أيٍّ كان وقت وفاته. وكلاهما لهما دليل قوي من القرآن، ولا أحد منهما استبد برأيه.

(الدرس6)

ـ نفقة المرأة المبتوتة التي طلقها زوجها ثلاث: سيدنا عمر اجتهد في هذا الموضوع ورأى أنها تستحق النفقة و السكنة أخذ ذلك اجتهادا من قول الله عز وجل: ((لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا

يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مبينة))، هذا دليل على أن الزوج مسئول على إسكان. جاءت امرأة اسمها (فاطمة بنت قيس) فقالت لعمر: إن زوجي طلقني فبث طلاقي، ولم يجعل لي رسول الله نفقة ولا سكنى، وقال سيدنا عمر لا ندع كتاب الله لقول إمرأة لا ندري أحفظت أم نسيت. المجتهد يأخذ بنص الحديث إن تأكد على صحته، أما إن ارتاب في صحته يصبح ضعيفًا ومن ثم لا يبنى عليه حكم.

ـ كان سيدنا أبا بكر لا يورث الإخوة مع الجد. لأنه كان يرى أن الجد بمثابة الأب، والأب يحجب الإخوة، أما سيدنا عمر فكان يورث الإخوة مع الجد، لأنه لا يرى أن الجد يحل محل الأب في حال غيابه.

ـ قوله تعالى: ((وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوَءٍ))، والقرء له معنيان متكافئان فهو يطلق على الطهر، وأيام الحيض أيضا، فكان سيدنا عمر وابن مسعود يريان أنها فترة الحيض، أما زيد بن ثابت وجمع من الصحابة يرون أن المراد بالقرء الطهر، ندرك من خلال هذا أن اختلاف الصحابة فيما بينهم في الأحكام الاجتهادية واحد من أسباب ثلاثة:

الأول: اختلاف في فهم النص مثاله اختلافهم في كلمة القرء

الثاني: اختلافهم في ثبوت النص أحدهم يثبته والأخر يقول بضعفه.

الثالث: الخلاف في القياس.

أشهر المفتين في عصر الصحابة: الخلفاء الأربعة لا شك فيهم، يليهم (عبد الله بن مسعود) و(عبد الله بن عمر) و(عبد الله بن عمرو بن العاص) و(عبد الله بن عباس) و(زيد بن ثابت).

هذا الكلام يبلور لنا أن المذاهب ولدت في عصر الصحابة. حيث أن جمهور الصحابة ليسوا كلهم من علماء الشريعة، وهؤلاء عليهم أن يرجعوا إلى هؤلاء المفتين. وكل منهم يستريح إلى مفتي معين. ولا إشكال في هذا حيث ربنا عز وجل يقول لنا: ((فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)).

ـ لم يكن اجتهاد الصحابة يجنح لا إلى إفراط أو تفريط، إذا فهم النص وكان ثابت لابد أن يتبع والمصلحة تأتي من وراء النص، لا يوجد النص لكن يوجد الإجماع لا مفر منه أبدا، وإن لم يوجد إجماع يفتح باب الاجتهاد وله ضوابطه.

ـ من الدين تعطى لهم الزكاة المؤلفة قلوبهم أي الذين تتألفون قلوبهم أي من المصلحة أن تتألفوا قلوبهم، وإن لم يكونوا من الّذين تتألفون قلوبهم أي في غنا عن ذلك فلا يستحقون. وسيدنا عمر هنا نفذ الآية ولم يتجاوز حدود الآية.

(الدرس7)

. مثال أخر يدندنون به عن ترك سيدنا عمر لنص واللحاق بالمصلحة يقولون ها هو بيان الله يقول: ((والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما))، ولكن عمر في عام الرمادة الذي كان فيه شدة على اقتصاد المسلمين وحبس قطر السماء عن الناس في ذلك العام، أوقف عقاب قطع يد السارق ويعاقبه عقاب آخر. مصدرا التشريع هما القرآن والسنة فلا يجوز أن نأخذ بنص من القرآن دون أن نأخذ شرحه من السنة. ولا يجوز أن نأخذ بنص من السنة دون أن نأخذ أساسه من القرآن. الكلام عن السارق والسارقة في القرآن كلام مجمل، بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن السرقة وشروطها من أجل إقامة الحد مبينة في السنة. الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما ترويه السيدة عائشة مرفوعا وموقوفًا: "إذراء الحدود أي إلغاء الحدود بالشبهات ما استطعتم فإن الحاكم أن يخطئ في العفو خير أن يخطئ في العقوبة"، أي إذا احتامت شبهة على السارق مثلا لم تتبث عذره يلغى الحد. وإذا رجعنا إلى كلمة اليد في القرآن فهي مجملة، والنبي فسر لنا معناها، والرسول يفسر معنى السرقة بقوله: "ويعد اقتناص المال سرقة إذا أخذ من حرز مثله".

الدور الثالث:

الدور الثالث من تاريخ التشريع يبدأ من السنة 41 للهجرة أي وقت ولاية سيدنا معاوية ويمتد إلى أوائل القرن الثاني للهجرة، من الخصائص التي برزت في هذا الدور مما لم يكن موجودا من قبل وهي خمسة:

أولاً: ظهور الغلو الديني نابجة من السياسة. في الخلاف الذي ظهر عند تولي سيدنا علي الخلافة، وظهر عند الخوارج وما يسمى الشيعة.

ثانيا: تفرق علماء الصحابة خارج الجزيرة العربية، وكان سيدنا عمر يمنع تفرقهم حتى يجد حاجته عندما تظهر مشكلات و أراد أن يستشيرهم فيها، لكن سيدنا عثمان في عصره سمح.

ثالثا: انتشار الرواية عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة دون ضابط.

رابعا: ظهور ما يسمى بمدرسة الحديث وكان مركزها في الحجاز، ومدرسة الرأي وكان مركزها في العراق.

خامسًا: ظهور تدوين الحديث حفظا له من شرود بعض الناس من ضوابط الرواية وحماية له من الزنادقة وأمثالهم.

ظهور الغلو الديني: سببه أمر الخلافة، أي هو دافع ديني في أمر سياسي، وفيه ظهور الخوارج حيث لما قامت الحرب بين سيدنا علي وسيدنا معاوية، وكان الدافع لذلك الاجتهاد لكلا الفريقين، وأراد معاوية من سيدنا علي أن يجنح لتحكيم ورفعت جماعته القرآن على أسنة الرماح، فاستجاب سيدنا علي لهذا الأمر، لكن طائفة من جماعته ما أعجبهم ذلك بعدما وافقوا، لكن فيما بعد غيروا رأيهم وخطئوا سيدنا علي في الخضوع لتحكيم. هذا الانشقاق هو الذي ولد من يسمون بالخوارج، أي خرجوا عن بيعة سيدنا علي رضي الله عنه. واتهمه البعض بالكفر على أنه لم يحكم القرآن بل حكم الرجال. وظهر تطرف في الأحكام وتكفير لمجرد المعصية. وظهرت فرقة الشيعة للعوامل التي ظهرت فيما بعد.

تفرق علماء الصحابة خارج الجزيرة العربية: حكمة سيدنا عمر كانت تمنع هؤلاء من السفر ويلزمهم بالبقاء بين مكة والمدينة كي يرجع إليهم في الملمات. ولكن سيدنا عثمان سمح لهم وله وجهة نظر، كي يوزع العلماء في الأمصار التي فتحت لتعليم الناس أحكام الدين. من أبرز من كان من العلماء الصحابة بالمدينة المنورة: (أبا هريرة) (السيدة عائشة) و(عبد الله بن عمر)، في مكة كان (سيدنا عبد الله ابن عباس) و(زيد بن ثابت) وآخرون في مصر: (عبد الله ابن عمرو بن العاص)، وفي بلاد الشام: (معاد بن جبل) و(عبادة بن الصامت)، في الكوفة: (أبو موسى الأشعري) و(عبد الله بن مسعود) وثلة من تلاميذ سيدنا علي رضي الله عنه، وترعرع على أيديهم مجموعة من التابعين من أبرزهم (إبراهيم النخاعي).

انتشار الرواية عن سيدنا رسول الله: كثرت واتسعت مع انعدام الضوابط عوامل ذلك كثيرة منها

ـ كثرة الزنادقة الذين تظاهروا بدخول في الإسلام وكانوا يضمرون خلاف ذلك. هؤلاء كانوا يؤلفون أحاديث من عندهم ويختلقون لها أسانيد وينسبونها إلى رسول الله. لكي يشككوا الناس في الدين ويتألبون على الحقيقة شيئا فشيئا

ـ ظهور الغلو الديني من خوارج وشيعة هذا دفعهم إلى اختراع أحاديث من أجل أن ينتصروا لأفكارهم، (عبد الله بن اللهيعة) يقول: رأيت شيخا من شيوخ الخوارج قال: (إن هذا الدين علم فانظروا عن من تأخذون دينكم كنَّا إذا هوينا شيئا جعلناه حديثًا) وهذا قد أسلم.

ـ في تلك البلاد النائية عن الجزيرة العربية مصر الشام الكوفة، كانوا يتشوقون إلى أن يعلموا ماذا يقول رسول الله أي ما هي تعليماته، ومنهم من يلجأ إلى الصحابة لتبيان روايات المصطفى وهم متفاوتون ضيقا واتساعا ففيهم المكثر في الرواية عن رسول الله وفيهم المقل وهذا لعوامل مثلا أبا هريرة عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله، السيدة عائشة أنس بن مالك هؤلاء من المكثرين لطول عمرهم ووضعهم الدنيا وراء ظهورهم وطول بقائهم إلى جانب الرسول عليه الصلاة والسلام، من العوامل مثلا عبد الله بن عباس كان يأخذ الرواية من الصحابة فكان يكثر الرواية. لهذا قرر علماء الشريعة أن الصحابة كلهم عدول خاصة إذا تبثت الصحبة لأحدهم، ومن أقوى الأدلة على ذلك شهادة المصطفى بل شهادة رب العالمين: ((محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا))... كلها مديح لأصحاب رسول الله. هناك من أعداء الدين يختلق مبررات تشكك في عدالة أحد الصحابة وخاصة سيدنا أبا هريرة لكثرة روايته عن رسول الله لكي نتشكك في أحاديث المصطفى وبتالي بنيان الشريعة الإسلامية.

ـ وهناك من يريد أن يجمع الناس من حوله، فيبدأ يروي لهم الأحاديث الباطلة. وكثيرا ما كانوا يدافعون عن ذلك بقولهم: (نحن نكذب لرسول الله لا عليه) أي نحن نريد تشجيعهم على العبادة وقيام الليل، ونخترع لهم أحاديث، ونريدهم أن يزهدوا في الدنيا بكثرة الأذكار وما إلى ذلك. وهذا الذي دفع إلى وجود مدرسة الحديث بالحجاز ومدرسة الرأي بالعراق.

(الدرس 8+9)

ظهور الفرق الإسلامية: نتحدث عن فئتين ظهرتا في الدور الثالث لهما صلة بتاريخ التشريع وهما الخوارج والشيعة. اشتدت الحرب بين جيشين معاوية وعلي رضي الله عنهما في معركة صفين من بلاد الشام. عندما رأى جيش معاوية أنهم ربما يبوءون إلى الفشل جنحوا إلى خطة ما، فرفعوا المصاحف على الرماح إعلانا منهم في الرغبة بالهدنة. سيدنا علي رضي الله عنه فكر في الأمر فرأى أن يحقن الدماء، وأن يستجيب لهذه الهدنة التي لا يعلم خلفياتها لكن أصحابه انقسموا إلى فريقين، فريق مؤيد وهم الأكثر وأخر غير مؤيد، وسيدنا علي قبل بالهدنة. هؤلاء الذين انسلقوا من سيدنا علي وغضبوا لعدم التفاته لرأيهم هم الذين سموا فيما بعد بالخوارج وسموا الذين أحدقوا به واتبعوه بالشيعة ومن دونهما كان أهل السنة والجماعة السواد الأعظم. وهكذا شيئا فشيئا أصبح لكل من الفئتين الخوارج والشيعة منزع ديني خاص ورؤى اجتهادية خاصة بهم سواء في العقيدة أو الأحكام.

الخوارج: في بدأ الأمر كانوا مؤيدين لسيدنا علي ثم انشقوا وكان رأيهم اجتهادي فقط لكن العصبية تغلبت فيما بعد، ووجدوا أن سيدنا علي لم يخطئ فقط بل أرتكب معصية كبرى بقبول الهدنة التي رفع شعارها معاوية. وعندما ظهرت العصبية عند هذه الفرقة وهي التي تقود وتوحي إليهم بمواقفهم، عندئذ تبنى هؤلاء الناس عقائد وأفكار ورؤى مستقلة جعلت منهم شخصية متميزة:

أولا: ساقهم رفضهم لما فعله علي إلى التخلص منه أيضا فقتلوه.

ثانيا: خلاصة عقائدهم و آرائهم الفقهية هي:

ـ قرروا أن مرتكب المعصية يكفر إلا أن يتوب لهذا كفروا سيدنا علي وبرروا قتله على هذا الأساس، وكفروا كثير من الصحابة الذين أيدوا سيدنا علي رضي الله عنه.

ـ وجوب الخروج على الإمام الجائر، و لا يكفي عندهم النصيحة والتذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل يجب الخروج عليه.

ـ الطاعات التي فرضها الله عز وجل جزء لا يتجزأ عن الإيمان، وتارك أحد منها دليل نقص في إيمانه لهذا يكفرون العاصي.

ـ يقولون أيضا أن المجتمع الإسلامي لا يحتاج إلى إقامة دولة، ولا حاجة لوجود إمام للمسلمين ذلك أن شعارهم لا حكم إلا لله.

ثم إن هناك فئات تفرعت من هؤلاء الخوارج ولعل أشدهم تطرفا الحروريون لكن هؤلاء فيما بعد سادوا بعد أن بادوا، ولعل فئة واحدة بقيت منهم وهم الإباضية وهم منتشرون بشمال إفريقيا وهي الأقرب إلى الاعتدال وهم بعيدون عن تطرف الذي كان عليه الخوارج القدامى، وهم قريبون لأهل السنة والجماعة في الحقيقة.

الشيعة: كيف ظهرت واستقلت بهم مظاهرهم عن بقية المسلمين. الواقع أن نواة الشيعة نشأت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما اجتمع الصحابة لتنصيب الخليفة بعد وفاة رسول الله، وبعد تشاور وأراء ومناقشة، وبعد هذا كله ثم الإجماع على أن يكون الخليفة أبا بكر رضي الله عنه. كل هذا من أجل استمرار الدولة الإسلامية التي كان قائدها الأول سيدنا رسول الله. وفيمن بايع سيدنا أبا بكر علي رضي الله عنه، ومن جملة الآراء أن يكون سيدنا علي هو الخليفة. لكن بعد الإجماع على سيدنا أبا بكر دفنت هذه النواة في تربة الإجماع. وظهرت من جديد بعد معركة صفيين بمدة، وعادت فكرة التشيع لسيدنا علي والنواة بدأت تتغذى، وهو ما جنح إليه أهل السنة والجماعة. وجماعة معاوية هم الباغية والكلمة يقصد منها فئة تقوم في وجه الدولة لها حجة اجتهادية،

وفئة البغاة ليسوا آثمون، لأنهم أقدموا على هذا من خلال اجتهاد رأوه. في هذا الدور ظهرت ما يسمى بفرقة الشيعة، وما اختصت به الشيعة من رؤى اجتهادية تتلخص فيما يلي:

ـ اعتقاد أن الخلافة ليست من الأمور التي يتم البحث عنها عن طريق الاجتهاد والشورى وما إلى ذلك، بل الخليفة لابد أن يكون منصوص عليه في القرآن أو السنة، ووجد هذا المعتقد بعد مقتل سيدنا علي رضي الله عنه.

ـ الخليفة لابد أن يكون معصوما عن ارتكاب أي إثم، وهذا التصور جاء بعد وفاة سيدنا علي أيضا.

ـ اعتقاد أن كل من استبق علي في الخلافة غاصب للخلافة وللحق الشرعي، لأن عندهم الخليفة الذي ينبغي أن يكون بعد رسول الله هو سيدنا علي رضي الله عنه. لاعتقادهم وجود نص على ذلك.

ـ الخلافة بعد سيدنا علي رضي الله عنه ينبغي أن يكون لأكبر أولاده من السيدة فاطمة وهو الحسن، لكن سيدنا حسن لم يكن كلفا بالخلافة ولا مهتم بها، لهذا تنازل عنها لسيدنا معاوية. عندها سكت الشيعة إلى أن توفي معاوية وخلفه ابنه يزيد، عندها اهتاجت الشيعة وغيرهم، ورشح سيدنا الحسين وتقدم للخلافة، والذي حصل أنه قتل في كربلاء. وانقسمت الشيعة إلى أقسام كثيرة.

هنا نفتح قوس لما تمت الخلافة لسيدنا أبو بكر فإن سيدنا علي بايعه، عندها كانت الردة قد انتشرت في أطراف الجزيرة العربية، جهز سيدنا أبا بكر أحد عشرة جيشا وجههم إلى نواحي الردة. وجهز جيشا ليتجه به هو بذات إلى ذي القصة مقاتلا لأهل الردة، عندها جاء سيدنا علي رضوان الله عليه أمسك بزمام فرس سيدنا أبا بكر وقال له: (أقول لك يا خليفة رسول الله ما قال رسول الله يوم أحد لمَّ سيفك وأمتعنا بنفسك فو الله لئن نكب المسلمون بك لن تقوم لهم قائمة من بعدك) هذا موجود في كل المراجع. هل هذا كلام إنسان يعتقد أن سيدنا أبا بكر اغتصب الخلافة؟؟؟ استشار سيدنا أبا بكر فيما بعد سيدنا علي في أن يتجه إلى بلاد الروم فاتحا فكان جواب سيدنا علي هذا الكلام: (أرى أنك مبارك الرأي مفوق منصور إن شاء الله)، سُر سيدنا أبا بكر واتجها ونفد خطته المعروفة. لما كانت خلافة سيدنا عمر أراد هو الآخر الاتجاه إلى بلاد فارس مقاتلا، لكن سيدنا علي وقف أمامه بنفس الموقف الذي وقفه مع أبا بكر لما أراد التوجه مقاتلا لأهل الردة وقال له: (كن القطب الثابت وأدر رحى العرب من دونك و أصغهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من

العورات أهم إليك مما بين يديك). وموقفه مع سيدنا عثمان كذلك، حيث عندما أحدق الخطر على سيدنا عثمان أرسل سيدنا علي الحسن والحُسين لحراسته. والذين كانوا بجانب سيدنا علي أثناء حرب صفيين لم يخطر ببال أحدهم أن أحد الخلفاء قد اغتصب الخلافة من سيدنا علي.كل ما في الأمر أنهم تصوروا أن الخلافة ينبغي أن تكون لعلي لا لمعاوية بعد وفاة سيدنا عثمان. ولكن بعد مقتل علي اشتدت العصبية ووصلت إلى اتهام كل من سبق سيدنا علي أنهم استلبوا الخلافة منه.

علينا من خلال هذا الكلام كله أن نحصن عقيدتنا و والله لا يكمل إيمان أحدنا إن لم يكن آل بيت سيدنا محمد هم سواد أعيننا، وهم استمرار لمكانة المصطفى صلى الله عليه وسلم. ويقول البوصري في مدحهم: آل بيت النبي طبتم، فطاب المدح فيكم وطاب لي الرثاء، أنا حسان مدحكم فإن نحتُ عليكم فإنني الخنساء سُدتم الناس بتقي، وسواكم سودته البيضاء والصفراء، غير أني فوضت أمري إلى الله وتفويضُ الأمور براء، فابكهم ما استطعت إن كثيرا في قليل من المصاب البكاء.

(الدرس 9)

ظهور الوضاعين: الثغرة التي مكنتهم من وضع الحديث عن رسول الله وهي عدم تدوين الحديث إلى ذلك العهد، حيث كان الحديث يروى اعتمادا على الذاكرة. ومع اتساع رقعة الإسلامية ووجود الأحاديث على الأفواه دون أن تسجل وتدون أصبحت ظاهرة خطيرة. والعوامل التي جعلت هؤلاء يدسون عن رسول الله هي:

ـ عداوة الإسلام والأحقاد التي كانت تغلي بها كثير من الناس الذين غلب على أمرهم من تضرر الساسة الذين كانوا يقودون شعوبهم التي دخلها الإسلام، وعصبية أقوام دفعتهم إلى التمسك بمعتقداتهم، مع حقد على الإسلام، وسبيلهم الوحيد للكيد على الإسلام الدس عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ووضع الأحاديث الكاذبة ووجدت جمعيات لأجل ذلك.

ـ ساحة الوضع وسيلة مفتوحة لأصحاب الفرق الجانحة الذين يريدون أن ينتصروا لمعتقداتهم الجانحة والدليل على ذلك أنهم كانوا يضعون الأحاديث المكذوبة عن رسول الله والتي تكون شاهدا لهم لصحة معتقداتهم التي هي ليست مبنية على قناعة وإنما مبنية على عصبية.وهؤلاء لا يمكن محاورته بالعلم والمنطق، لأنه منتصر لذاته و أناه.

ـ بعض الناس يضعون أحاديث في فضل بعض السور في فضل بعض العبادات دون أن يكون الرسول قد قالها، وقيل لبعضهم لما تفعلون ذلك قالوا: (نحن نكذب لرسول الله لا نكذب عليه)، وأحد هؤلاء كتب فضل جميع سور القرآن وحجته أن يشد الناس لقراءة القرآن لانصرافهم عنه. والرسول ذكر فضل بعض السور مثل الواقعة، الكهف وغيرها.

يروي مسلم في صحيحه عن ابن عباس: (إن كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن يكذب عليه فلما ركب الناس في ذلك العصي و الذلول أمسكنا وتركنا الحديث عنه)، ويروي مسلم في مقدمة صحيحه يقول: (جاءَ (بشير العدوي) إلى عبد الله بن عباس فجعل يحدثه ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل بن عباس يعرض عنه ولا ينظر إليه ولم يأذن له. فقال له: (يا ابن عباس مالك لا تسمع حديثي عن رسول الله)؟ فقال له ابن عباس: (إن كنا مرة إذا سمعنا رجل يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا وأصغت إليه أذاننا فلما ركب الناس في ذلك الصعب و الذلول تركنا الأمر ولم نعد نصغي إلاَّ إلى من نثق).

ـ متابعة أهواء بعض الأمراء والخلفاء وعلماء السوء موجودون في كل زمان ومكان، حيث يجالس الأمراء ويرى ما هي هواياتهم ويخترعون حديثا ينسجم مع هواياتهم.

ـ التساهل من أجل جلب الناس إلى العبادة وقراءة القرآن والأذكار.

ـ من أخطر العوامل عامل الزندقة، يروي (حماد بن سعيد) يقول وضعت الزنادقة ما لا يقل عن أربعة آلاف حديث يكذبون فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخلطوا الحق بالباطل.

هؤلاء جميعا لم ينجحوا وهذا الشيء أيقظ الصحابة والتابعين من بعدهم إلى القيام بمهمة علمية كبيرة جدا جعلت العالم كله يذهل لهذا التحصين العجيب العلمي الحضاري لحديث رسول الله ثم أصبح هذا الأمر نهجا لتاريخ كله. حيث حصر الصحابة أنفسهم وتلامذتهم التابعين ومن غير هؤلاء وضعوا في قائمة التهمة عن طريق إبداع علم اسمه (علم الجرح والتعديل) هو عبارة عن قواميس لضبط الرجال، وكان بعد جهد كبير من الصحابة والتابعين الذين تمكنوا من جهودهم جمع الوضاعين على اختلاف دوافعهم الزنادقة، ودوي العصبيات المذهبية، والمغفلين الذين قالوا أنهم يريدون جدب الناس للإسلام بالكذب إلى رسول الله وغيرهم. وكانوا يصنفونهم أعلاهم كلمة حجة، صدوق، لا بأس به... ثم صفات أخرى وهم الذين لا يؤخذ منهم أبدا.

(الدرس10)

وجود تيارين بالحجاز والعراق:

إن الظواهر الثلاثة التي تميز بها الدور الثالث وهي انتشار الصحابة بالأمصار، كثرة الرواية عن رسول الله، وظهور الكذابين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،استلزم وجود التيارين أو المدرستين، الذي بالحجاز سمي (بمدرسة الحديث)، أما الذي بالعراق سمي (بمدرسة الرأي).

مدرسة الحجاز: كانت تعتمد دائما على النص ولا تتجاوزه إلى الرأي الاجتهادي إلا عند الضرورة القصوى، لذلك سميت بمدرسة النص. عوامل اعتمادهم على هذا هي:

كثرة وجود حفاظ الحديث بالحجاز، باعتبار المنطقة منبع الوحي ومصدره.

قلة ما كان يعرض لأهل الحجاز من المشكلات الاجتماعية والحضارية والأعراف.

تهيب علماء الحجاز من الاقتحام إلى الأحكام الشرعية دون دليل إلى النص.

درايتهم بقواعد الاستنباط ما كانت قد نضجت بعد.

مدرسة الرأي: كانت تعتمد على الرأي في الغالب ولا تجنح إلى النص إلا بعد اليقين التام بأنه نص صحيح. وعوامل اعتمادهم على هذا هي:

- قلة الأحاديث التي بوسعهم أن يعتمدوا عليها.

- الكذب على رسول الله وجد هناك، هذا ما أدى إلى علماء العراق إلى أن يحتاطوا في الرواية عن النبي.

- كثرة المشكلات والأعراف الطارئة لكونها لم تكن بلاد إسلامية، لهذا وجب على العلماء البحث عن حكم الله في هذه العادات والأعراف المنتشرة.

- الوضع الذي هم فيه جعلهم يتمرسون بالاجتهاد بالرأي، وقواعد استنباط الأحكام من مصادرها، وبناء الأحكام على مصالح تدخل في مقاصد الشريعة الإسلامية.

- الجامع المشترك بين المدرستين أنهما تبحثان عن حكم الشارع جل جلاله ورأيه في الأحكام. والنص الصحيح من رسول الله يلتقيان عليه. ويختلفان في طبيعة البيئة.

أمثلة لوجهة نظر المدرستين:

يروي علماء التاريخ التشريع الإسلامي أن الإمام الأوزاعي اجتمع بالإمام أبا حنيفة في مكة فقال الأوزاعي: (لماذا لا ترفعون أيديكم عند الركوع وعند الاعتدال)؟ فقال أبو حنيفة: (لأنه لم يصح من رسول الله في ذلك شيئاً)، فقال الأوزاعي الذي هو من جماعة الحديث: (كيف؟ روى الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرسول كان إذا افتتح صلاته رفع يديه وإذا ركع رفع يديه وإذا رفع من الركوع رفع يديه أيضا)، فقال له أبو حنيفة: (روينا عن حماد عن إبراهيم عن علقمة ابن قيس عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يرفع يديه إلا في تكبيرة الافتتاح)، فقال الأوزاعي: (أقول لك روى الزهري عن سالم عن أبيه أي عبد الله بن عمر وتقول لي روى حماد عن إبراهيم عن علقمة)؟ فقال أبو حنيفة: كان حماد أفقه من الزهري وكان علقمة لا يقل عن سالم فقهاً، وكان عبد الله بن مسعود لا يقل عن عبد الله بن عمر.

مثال آخر، النبي عليه الصلاة والسلام ذكر حكم الشاة أو الناقة المصراة أي الرجل جمع اللبن في ثديها وأراد بيعها حتى تظهر لناس أنها معطاء ثم اشترى زيد من الناس هذه الشاة فتبين له أنها غش والحديث الذي صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيد الشاة مع صاع من الثمر مقابل الحليب الذي حلبه. علماء الحجاز أخذوا هذا الحديث وطبقوه. وأهل العراق لم يصلهم هذا الحديث.

علماء الحجاز قرروا أن إنسان إذا أوقف أرضا انتهى الأمر لا يستطيع أن يسترجع هذه الأرض. أبو حنيفة يقول: (إذا وقف الإنسان بستان نخل دار.. بوسعه بعد سنوات أن يسترجع). وأبو يوسف خالف أبا حنيفة في هذا فيما بعد.

أشهر المفتون في الدور الثالث: من أشهرهم (سعيد ابن المسيب) وهو من سكان المدينة المنورة أي من علماء الحديث وهو من أجلهم، ومن أكثرهم ورعا، ومن أكثرهم رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي خطب إليه (عبد الملك ابن مروان) ابنته لأبنه الوليد فأبى، وزوج ابنته من تلميذ له فقير اسمه (أبو وداعة) بدرهمين أو ثلاثة. -يمكنكم الرجوع إلى القصة للمؤلف مصطفى صادق الرافعي-. من المفتين بالحجاز (عطاء بن أبي رباح) رضي الله عنه وهو من أهل مكة، هو رجل شديد السمرة، وكان إماما متقدما في الفقه وفي الحديث، وعلوم الشريعة كلها، وكان منادي الخليفة ينادي: (ألا لا يفتينا أحد إلا عطاء بن أبي رباح). من المفتين أيضا (إبراهيم النخاعي) وهو من علماء الرأي بالكوفة، أيضاً(حسن البصري) وهو مرجع كبير في علوم العقيدة وعلوم الفقه وفي الرواية عن رسول الله وكان ورعا ومن نبلاء العلماء، وهو الذي روى عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم الذي يقول فيه: "عمالكم أعمالكم كما تكونوا يولى عليكم". وقال لهم الحديث لما سمع رجلا يسب الحجاج فقال له: (لا تقل ذلك يرحمك الله، فإني أخشى إن هلك الحجاج أن يتولى عليكم القردة والخنازير). ثم ذكر الحديث. أما في بلاد الشام كان هناك مفتيان(مكحول) و(الإمام الأوزاعي).

تدوين الحديث وحمايته: من الأمور التي تجلت في أواخر هذا الدور، العلماء كانوا معتمدين على الخلفاء وخاصة بني العباس الذين اشتهروا بخدمة الدين وحماية الحديث، وأول من قام بتدوين الحديث (أبو بكر ابن حزم) الذي أخرج أول مدونة وكان موثوقا وعرف ذلك من الرواة. وظهرت أيضا مدونة الموطأ (للإمام مالك) حيث أن (أبو جعفر المنصور) طلب منه أن يدون كل ما يعرفه من أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: "وطئه توطئا واحميه"، وفعل ذلك. وامتازت هذه المدونات عن غيرها بمتزاج الأحاديث مع الأحكام الفقهية. من المدونات التي ظهرت مدونة (سفيان ابن عيينة) أخرج ما سماه (الجامع في السنن والآداب) ومدونة(سفيان الثوري) أخرج ما سماه (الجامع الكبير في الفقه والحديث).

في أواخر هذا الدور انتشرت عقيدة تقول أن الشريعة الإسلامية تؤخذ من القرآن فقط والسنة ليست مصدرا تابتا لشريعة الإسلامية، ومن قال هذا من الدساسين والزنادقة. وسرعان ما تم القضاء على هذه اللوثة من طرف الإمام الشافعي، وذلك عندما أخرج كتابه (الرسالة).

(الدرس 11)

الدور الرابع:

يبدأ هذا الدور من أوائل القرن الثاني إلى أواسط القرن الرابع، ومن أهم ما يتميز به هذا الدور:

- أن مدرستي الرأي والحديث تقاربتا وازدادتا تقاربا حتى توحدتا في مدرسة واحدة متناسقة.
- اتساع العلوم الإسلامية وغيرها، وتحولها إلى مدونات.
- ظهور أئمة المذاهب الأربعة.

النشاط العلمي واتساعه: الظروف التي كانت في هذا الدور ساعدت العلماء على اتساع معارفهم في مختلف المجالات، وجد علم النحو، مدونات اللغة، علم العروض أي أوزان الشعر، الأدب، البلاغة، التاريخ. وترجمت علوم إلى العربية منها الفلسفة، المنطق، الرياضيات. وهناك علوم

ابتكرت مثل علم الفلك، الهندسة، علم الطب. ومن أبرز علماء هذا الدور (سفيان بن عيينة) و(سفيان الثوري) و(مالك بن أنس) و(الحسن البصري) و(الإمام أبو حنيفة) و(الإمام عبد الرحمان الأوزاعي) و(الإمام الشافعي) و(الليث بن سعد) و(الإمام أحمد) و(داوود الظاهري).

عوامل هذا النشاط هي:

أولا: عناية الخلفاء بالعلم والعلماء وخاصة الخلفاء العباسيين منهم (أبو جعفر المنصور) الذي كان له دور مهم في حماية السنة وتدوينها وبدل في سبيل ذلك جهدا كبيرا وجعل من نفسه خادما للعلماء في هذا الصدد. (المهدي) الذي جاء من بعده التاريخ سجل له ملاحقته لزنادقة أينما كانوا وإنزال أشد العقوبات بهم. (هارون الرشيد) تاريخه يرفع الرأس وهو أول من أوجد مركز قاضي القضاة، حيث عيَّن (أبا يوسف) تلميذ الإمام (أبو حنيفة) قاضيا للقضاة. وهارون الرشيد لا يبرم في أمر من أمور المسلمين إلا بعد الرجوع إلى ما تقرره الشريعة الإسلامية، والمفتاح في ذلك (الإمام أبو يوسف) أي مفتاح اتصاله ببقية العلماء. وهارون الرشيد كان يتربص بخطط الكائدين فيواجههم قبل أن يواجهوه، والعصمة لرسل والأنبياء فقط. (المأمون) من الذين شجعوا علماء المسلمين وخاصة المعتزلة، وفي عصره كانت المحنة، وجاء من بعده (المتوكل) الذي أنهاها وانتصف للإمام (أحمد بن حنبل) و(المأمون)شجع البحث العلمي والحوار.

ثانيا: حرية البحث والنقاش حيث كان يسود بين أئمة المذاهب الحوار الهادئ وبإشراف خليفة المسلمين، وكثيرا ما تحول الحوار إلى مدونات علمية مثل كتاب(الحيدة) في نقاش طويل بين أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق.والمعتزلة من أشد الجماعات التي كانت تضيق درعا من الحوار والنقاش. والحوار هو الذي أدى إلى إبادة كل الفرق التي ظهرت آنذاك، وهذا بفضل الإسلام الذي دعا لذلك.

ثالثا: كثرة الوقائع بسبب أن الفتوحات الإسلامية انتشرت في كثير من البقاع، والحضارة الإسلامية تألقت في هذا الدور، لذلك سمي هذا الدور بالعصر الذهبي للإسلام، كثرة الرؤى والوقائع كلها تنصب في رأي إلى الحكم الإسلامي منها، وكلها تجد حلها في الإسلام.

رابعا: تدوين العلوم الذي أصبح الأساس في نشرها والمعارف في الدولة الإسلامية المترامية الأطراف. والخلافة هي التي ترعى هذا التدوين وتشجعه، وبتالي سهل على الناس مراجعة البحوث.

في ظل هذا النشاط العلمي تطورت العلوم الإسلامية منها علم التفسير، علم الحديث، وتطورت طرق إيصال مبادئ العقيدة للأذهان.

التفسير: كان في عصر رسول الله مسموعا غير مقروء، وكان المفسر في عصر الصحابة والتابعين أحدهم يركز على سورة ليفسرها لاهتمامه بأمر معين، ولم يكن هناك تدوين. لكن في هذا الدور تحول التفسير من مسموع إلى مقروء ودونت التفاسير ومن أبرزها تفسير (ابن جرير الطبري) وتفسير(محمد ابن إسحاق)، تفسير (السُدي) وتفسير (سفيان بن عيينة)، والتفاسير تنقسم إلى نوعين: (تفاسير مرتبطة بالمأثور عن رسول الله أو عن الصحابة والتابعين ومنها تفسير ابن جرير الطبري وتفسير ابن كثير). النوع الثاني يسمى: (التفسير بالرأي أي إضافة إلى المأثور زادوا ما دلته عليه عقولهم وأفكارهم من معاني استنبطوها من كتاب الله بمقتضى قانون الدلالات منها تفسير معا لم الغيب) لفخر الدين الرازي.

(الدرس 12)

السنة:تطورت في هذا الدور طريقة تدوين الحديث كانت بطريقة أبواب فقهية مثل المعاملات العقائد... مثل مدونة ابن حزم فتطورت إلى مسانيد مثل مسند (الإمام أحمد)، مسند (أبي يعلى الطبراني) كانت تدون بالرجوع إلى صحابي من الصحابة وعدد الأحاديث التي رواها فتذكر مثلا مرويات (أبا هريرة) في أي باب كانت، ثم مرويات(عبد الله بن عمر)وهكذا.

- تطورت طرق التدوين لاهتمام علماء المسلمين البالغ بحراسة الأحاديث حيث عادوا إلى التبويب والفرق بينه وبين التي سبقت عناية العلماء وضبطهم للحديث الصحيح، وظهرت في هذا المنهج ما يسمى بالكتب الستة أولها صحيح البخاري (محمد بن إسماعيل البخاري) صحيح مسلم (لمسلم بن حجاج)، (سنن بن داوود) سليمان بن الأشعث، (سنن الترمذي) محمد بن عيسى الترمذي، (سنن بن ماجة) محمد بن يزيد القزويني (سنن النسائي) أبو عبد الرحمن بن أحمد النسائي. وهي قمة العمل الذي ضبط فيه الحديث ضبطا متطورا، وكلها ظهرت أواخر القرن الثاني والثالث للهجرة.

علم الجرح والتعديل الذي ظهر في أواخر القرن الثالث وهو من أغرب العلوم الذي يتعجب منها إلى اليوم الغربيون وأول من اهتم بهذا العلم (يحي بن سعيد القطان) وشهد له الإمام الشافعي وقال:(لم أرى في الدنيا مثل (يحي بن سعيد القطان) وأيضاً (عبد الرحمان بن مهدي) و(يحي بن معين) و(علي بن المدينة) شيخ الإمام البخاري و(أحمد بن حنبل)، ومهمة هؤلاء هي جمع أسماء الرجال الذين يهتمون برواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتصنف هذه القائمة إلى

رجال الصحيح ويوصفون بالحجة، فئة أخرى توصف بالثقة، فئة ثالثة لا بأس به، ثم تنزل الدرجة عن القبول. كل هذا العمل الغرض منه قطع الطريق على الزنادقة فيمارسوا ما مارسوه من قبل. ومما يسر لهم هذا العمل قرب العهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتبع هذا العلم ضوابط الحديث الصحيح وأنواعه منها المشهور، الآحاد، المتواتر، الضعيفة، المنكرة.

الفقه: وهي ما يتعلق بالمعاملات والأحكام السلوكية، قانون العقوبات، العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم...والشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع. وأبرز ما ظهر في هذه الفترة المذاهب الأربعة وأولها هو:

مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى

ولد عام ثمانين وتوفي عام مائة وخمسين اسمه(النعمان ابن تابت)وأصله من الفرس، والراجح أنه كان من أتباع التابعين، عاصر أربعة من الصحابة والصحيح أنه لم يراهم هم)أنس بن مالك)و)عبد الله بن أبي أوفى)و)سهل بن سعد الساعي)و)عامر بن واتله)وفي العلماء من رجح أنه رأى أنس بن مالك وروى عنه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:(طلب العلم فريضة على كل مسلم).أبا حنيفة أخذ العلم من)عطاء بن أبي رواحه)و(نافع مولى عبد الله بن عمر)و)حمادة بن أبي سليمان)وهذا ظل يلازمه ثمانية عشرة عاما و)إبراهيم النخاعي(وغيرهم، وكان في الوقت ذاته يكدح في سبيل رزقه كان خزازا يبيع الخز في الكوفة، وكان معروفا في استقامته في المعاملة وكان كريما جوادا وكان سمحا. الذين رأوه وعاشروه منهم)عبد الله بن المبارك)قال:(أفقه الناس الذين رأيت أبو حنيفة، ما رأيت في الفقه مثله قط)ويروي عنه القصة التالية قال

(ذهبت إلى الشام سمعت عن الإمام الأوزاعي، بحثت عنه قال هو في بيروت، ذهبت إليه كان إماما ومؤذنا في مسجد هناك دخلت عليه وعرفته على نفسي فقال لي يا خراساني، من هذا الذي ظهر بينكم تسمونه أبو حنيفة؟ قال وعدت إلى داري فأخذت أبحث في كتبه فاستخرجت بعض المسائل الهامة، فعدت في اليوم الثاني إلى الإمام الأوزاعي دخلت مسجده كان قد أذن للتو، فسلمت عليه)قال:(ما هذه الأوراق)(فأعطيته إياها، فوقف وأخذ يقرأها، واهتم بها، واحتفظ بها. وصلى الصلاة وقام إماما، وعاد بعد الصلاة يقرأها)فقال:ط من هذا النعمان بن تابت؟ هذا نبيل من النبلاء ألزمه واستكثر منه(فقال)هذا هو ابن حنيفة الذي منعتني عنه) وروى هذه القصة ليبين دقة علم أبا حنيفة بشهادة الأوزاعي.وقال عنه الشافعي:(الناس عالة على فقه أبي حنيفة)أي فضل الفقه على الناس. وعرف بالورع حيث أن)يزيد بن هبيرة)كان واليا من قبل الخليفة،طلب من أبي حنيفة أن

يقبل القضاء، فاعتذر، لكن يزيد أصر فاعتذر أيضا، فجلده مائة سوط متأملا أن يقبل، ولكنه رفض. أما المنصور فقد جرب حضه هو أيضا وطلب من أبا حنيفة أن يتولى القضاء فرفض، أصر وحلف بالله لتتولينا القضاء، فحلف أنه لن يتولى القضاء. نظر حاجب المنصور إلى أبا حنيفة وقال:(ويلك أمير المؤمنين يحلف)فقال:(أمير المؤمنين أقدر على كفارة يمينه مني)ثم قال:(يا أمير المؤمنين لا تشرك في هذا العمل من هو ليس أهلا له فو الله أنا لست مأمونا في الرضي فكيف أكون مأمونا في الغضب". وكان رحمه الله قوي في الحجة لحفظه النصوص وقدرته على الاستنباط.

كان رجل اسمه)أبو العباس الطوسي)له حفيظة على أبا حنيفة دخل يوما أبا حنيفة على المنصور وكان هذا أبو العباس موجودا مع جمع من الناس، وهمس لجار له وقال:(سأقيدن اليوم أبا حنيفة) فقال:(ي أبا حنيفة أمير المؤمنين يدعونا بين الحين والأخر لنقتل أناسا هل هم أهلا إلى أن يقتلوا أم لا، ماذا ترى في ذلك؟ فقال أبا حنيفة:(أمير المؤمنين يقضي بالحق أم لا؟ قال:(يقضي بالحق)فقال:(إذن اتبع الحق أينما كان)ثم قال:(هذا أراد أن يقيدني فحبسته)

دخل عليه يوما ثلة من الخوارج وكان لهم شأن يوم ذاك وقد شهروا سيوفهم قالوا له:(يا أبا حنيفة لنسألنك سؤالين، فإن أجبت بالحق الذي نعلم تركناك وإلا قتلناك)فقال:(ولكن أغمدوا هذه السيوف فإن بريقها يشعل قلبي)قالوا:(وكيف نغمدها ونحن نتقرب بها إلى الله في نحرك؟ قال:(إذن فاسألوا)قال رجل شرب الخمر وغص بجرعة منها ومات قبل أن يتوب، وامرأة زنت وحملت وأثناء الولادة عسر الطلق وماتت قبل أن تتوب، ما حكمهما؟ فقال أبا حنيفة:(من أي مذهب هما أمن النصارى؟ قال:(لا. قال:(أمن اليهود؟ قال: لا. قال:(أمن الصابئة؟ قال: لا. قال: فمن أي مذهب هما؟ قال:(من المسلمين. قال: فقد أجبتم. فقال:ط فهل هما في الجنة أم في النار؟ قال: أقول ما قال سيدنا عيسى: ((إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)) أنا لست خيرا من سيدنا عيسى فيما قد قال. مواقف تدل على سرعة بديهته، وقوة عارضته وذكائه.

(الدرس 13)

منهج أبو حنيفة في الاجتهاد: تلامذة أبا حنيفة نقلوا لنا منهجه وآراءه لأنه لم يترك من ورائه مؤلفات، من أصحابه الإمام محمد الإمام يوسف نقلوا عنه آراءه الاجتهادية، ودونوا عنه آراءه الفقهية وذكروا منهجه في الاستنباط والاجتهاد. يقول أبا حنيفة:(إنني أخذ بكتاب الله، فما لم أجده فيه أخذته من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإذا لم أجد فيهما جوابا عن مسألة ما أخذت

بأقوال الصحابة، لمن شئت منهم إذا اختلفوا في الرأي. ثم لا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم.وإذا انتهى الأمر إلى)إبراهيم النخعي)والشعبي وحسن البصري وابن سيرين، فالي أن أجتهد كما اجتهدوا. أبا حنيفة يشترط عند الأخذ بالحديث أن يكون مشهورا، وأن لا يدخل بما عم به البلوى أي الضرورات.

الاجتهادات التي تميز بها أبا حنيفة: تميز أبا حنيفة بما يسمى الاستحسان وهو نفسه المنهج الذي ذكر من كتاب الله إلى النص فالقياس والاجتهاد وسد الذرائع... وطاب لأبى حنيفة أن يسميه الاستحسان وهو نفس المنهج عند بقية الأئمة. وهنا تبرز دقة أبا حنيفة عندما تشتبك الأمور وتتشابه وهو قوي في الحجة التي يبرزها أمامك.

أمثلة اعتمد فيها على الاستحسان في باب الحدود يقول:(إذا شهد أربعة أشخاص على شخص بارتكاب الفاحشة، لكن اختلفت مواصفات كل منهم في وصف هذه الفاحشة مثلا في المكان الحكم نأخذ بالحديث الذي يقول:(ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم)أبا حنيفة يقول بما أن هؤلاء اختلفوا ولم يتفقوا إذن شهادتهم غير مقبولة. إذن يقام عليهم الحد، نقبل شهادتهم عندها يرتفع الحد عنهم، وفي نفس الوقت لا نقيم الحد على المشهود عليه لوجود شبهة عندها لا تقبل شهادتهم أيضا. ودليله الاستحسان الذي مصدره حديث رسول الله، إذن حديث رسول الله يخدم الطرفين.

ـ مثال أخر سئِل العلماء عن جوارح الطيور التي تفترس كالصقر هل إذا حطت على وعاء وشربت منه يتنجس الماء مثل السباع الأخرى، من العلماء من قاس جوارح الطيور على جوارح السباع، أبا حنيفة قال أن الطير يشرب الماء بمنقاره وهو جاف ولا يصل اللعاب إلى الماء ويقاس سؤر الطير بسؤر الإنسان، وهذا القياس هو استحسان عند أبا حنيفة.

أسباب انتشار فقه أبي حنيفة:

أول من اشتغل بالفقه الافتراضي أي فتح باب الأمور التي لم تقع بعد، وبهذا انتشرت لإيجاد حلول لمشكلات عند الناس، سأل أبا حنيفة يوما أبا قتادة: (ما تقول في رجل غاب أعواما ولم نعرف عنه شيئا؟ قال:(ويحك وهل وقع هذا؟ قال: لا لم يقع. وإنما كي نعلم مدخله ومخرجه إن وقع.

تلميذ أبا حنيفة أبا يوسف نصبه)هارون الرشيد)قاضيا للقضاة ومنه قضاة في مناطق أخرى ولهذا انتشر مذهبه. تنصيب هارون أبا يوسف قاضيا للقضاة دليل نزاهته حيث يكون أبا يوسف حاكما عليه.

تدوين تلامذته لاجتهاداته مثل الإمام أبو محمد)دون أرائه المباشرة أي ما يسمى بظاهر الرواية.

(الدرس 14)

أئمة أهل البيت:

ـ كان أبا حنيفة كثير السفر إلى الحجاز للجلوس إلى علمائه منهم)عطاء ابن أبي رباح(وهو مفتي مكة والمدينة. وأخذ عن نافع مولى عبد الله بن عمر، وجلس إلى كثير من علماء أهل بيت رسول الله منهم)زيد بن علي)و)محمد الباقر)والد)جعفر الصادق)وقال عنه أبا حنيفة:(شهدت زيد بن علي كما شهدت أهله فما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أعلم ولا أسرع جوابا ولا أبين قولا). وكان كثير التردد إلى)محمد الباقر(وهؤلاء هم أئمة الشيعة الذين ساروا على نهجهم. وقد تبت أن علماء أهل البيت كانوا يثنون على الخلفاء الثلاثة ثناء كبير، ويعلنون في كل مناسبة عن توقيرهم البالغ لهم.

ـ دخل أهل العراق على الإمام)محمد الباقر(رحمه الله تعالى فوقعوا في الحديث عن الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان أي قالوا عنهم كلاما سيئا، فغضب محمد الباقر غضبا شديدا فقال لهم مؤنبا:(أنتم من المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيل الله، وأنتم من الذين تبوءوا الدار والإيمان من بعدهم؟ قالوا لا. قال:(فلستم من)الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا)قوموا عني لا قرب الله عني داركم.

ـ يقول)علي بن الجعد(راويا عن)زهير بن معاوية)يقول قال زهير(لجعفر الصادق):(إن لي جارا يزعم أنك تبرأ من أبي بكر وعمر)فقال له جعفر:(برأ الله من جارك والله إني لأدعو الله أن ينفعني من قرابتي من أبي بكر(وقال:(ويحك أتعلم من هو عمر إنه ذاك الذي زوجه علي من ابنته أم كلثوم. أتعلم من هي أمها إنها فاطمة الزهراء. أتعلم من أبوها؟ هو علي. فلو لم يكن أهلا لها لما أعطه إياها)

ـ كان سيدنا جعفر يقول:(ولدني أبا بكر مرتين)وذلك أن والدة جعفر)أم فروة)هي بنت القاسم ابن محمد ابن أبا بكر. وأم والدة جعفر أسماء بنت عبد الرحمان ابن أبا بكر. وجعفر الصادق كان يتباهى بنسبه هذا إلى أبا بكر.

وأبا حنيفة تتلمذ على محمد الباقر وجعفر الصادق وكان يروي عنهما وجعفر كان يروي عن أصحاب رسول الله، ومحمد الباقر أيضا. ولم يكن آنذاك أي فئة اسمها الشيعة تتخذ موقف العداء. لكن الذي طبخ الحقد في قلوب بعض الناس من الخلفاء الثلاثة هو)عبد الله بن سبأ)ذاك الذي كان يسمى ابن السوداء يهودي مقنع بالإسلام جاء من اليمن وهو الذي إذا جلس إلى الناس قال:(أن علي سيعود مرة أخرى بأدلة كاذبة على ذلك، ويزرع الحقد على أصحاب رسول الله، وعلى الخلفاء الثلاثة بذات رضوان الله عليهم شيئا فشيئا. وهو الذي هيج المسلمين بعضهم على بعض يوم الجمل.

دليل الحب الصادق لآل بيت رسول الله هو الإتباع منهم)محمد الباقر)و)جعفر الصادق)

أبرز تلامذة أبا حنيفة:

- أبو يوسف اسمه)يعقوب ابن إبراهيم)ولد عام مائة واثنا عشر من الهجرة، واشتغل أولا بالحديث وذهب إلى الحجاز وتلقى العلوم هناك من كثير من علماء الحديث وهناك من نعته بالمحدث، ثم تحول من نقل الحديث إلى الفقه وأستاذه الأول)عبد الرحمان ابن أبي ليلة)وهو من فقهاء الرأي. ثم اتجه إلى أبي حنيفة رحمه الله تعالى وأخذ عنه لمدة ثمانية عشرة عاما. وقد كان فقيرا واساه أبا حنيفة وأعانه بالمال، وهو أول من دون علم أبا حنيفة ونشر علومه المختلفة. أبا يوسف إن سئل يبين لسائل مقاطع الأحكام، وله بعد ذلك أن يقترح التمسك بالورع.

- محمد ابن حسن الشيباني ولد عام مائة واثنان وعشرين بالكوفة طلب الحديث والفقه وعلم الكلام من الإمام مالك ودرس على الأوزاعي والإمام سفيان الثوري و آخرين، وقد تعرف على أبا حنيفة وصحبه وأخذ الفقه عنه، لكن لم يتح له مجالسته مدة طويلة،وأخذ من أبو يوسف أيضا. أصبح محمد مرجعا في الفقه الحنفي وتألق نجمه أكثر من أبو يوسف بسبب شغله بالقضاء الذي منعه من مواصلة العلم والمعرفة. الشافعي زار بغداد وزار قبر الإمام أبا حنيفة وكان يبجله تبجيلا كبيرا، وتعرف على)محمد ابن حسن الشيباني)وقال أنه أخذ منه وقر بعير من العلم أي حمل بعير بمعنى الكتب التي قرأها ترقى في ثقلها حمل بعير.وهذا مظهر من مظاهر تواضع الإمام الشافعي.وقد قامت مناظرات طريفة وجميلة بين الإمام الشافعي وبين محمد ابن الحسن بعضها تابع فيه الشافعي محمد وبعضها العكس. هذه المناظرة من أجل البحث عن الحق. وهي موجودة في كتاب الأم لشافعي.

مثال منها أبا حنيفة كان يرى في الأشربة التي ظهرت من غير الخمرة الحرمة تناط بالسكر، فناقش الشافعي محمد بن الحسن في هذه المسألة، وكان فيما قال له الشافعي:(أرأيت لو أنه شرب كأسا فلم يسكر)قال:(إذا لا تثبت الحرمة)قال:(أرأيت إن أضاف إليه كأسا ولم يسكر؟(قال لا تثبت عليه الحرمة)قال:(أرأيت إن كان موجود في مكان دافئ فخرج فلحته ريح فسكر أرأيت إلى شراب شربه وهو مباح واستقر في جوفه وهو مباح، ثم أصبح بعد ذلك ما في جوفه محرما)ما من شأنه أن يسكر سلفا نقول عنه حرام.

تتبع هذه المناظرات يفيدنا أمرين اثنين العلم الغزير واسترضاء الله في هذه المناظرة، دون أن يعتز أحدهما برأيه أثناء المناظرة. بل كل منهما يبتغي معرفة الحق.

مثال ثاني ما يذهب إليه الإمام أبا حنيفة رحمه الله من أن إنسانا إن أوقف أرضا أو عقارا يملك أن يعود بعد ذلك الوقف ويسترجعه، إلا إذا تبت العقد في ديوان الدولة. ناقش محمد الشيباني هذه المسألة مع أبا حنيفة قال:(سيدنا عمر جاء إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم أنبأه أن له أرض في خيبر لم تقع لي أرض أفضل منها فماذا تأمرني يا رسول الله أن أفعل بها؟ قال:(إن شئت حبست عينها أي لا تباع ولا تشترى، وسبلت منافعها). ففعل ذلك سيدنا عمر رضي الله عنه. ثم سيدنا عمر كان بإمكانه استرجاع الأرض لكنه لم يفعل. فرجع محمد الشيباني إلى ما رآه الشافعي.

ـ من جملة الحوارات التي كانت بين أبا حنيفة ومحمد الباقر، يوم أول لقاء بينهما قال له محمد الباقر:(أنت الذي أثرت على كلام جدي محمد رسول الله القياس؟ فقال أبا حنيفة:(يا سيدي اجلس في مكانك الذي أنت أهل له،وأنا أجلس في مكاني الذي هو أهل لي، وأحدثك. وقيل أن أبا حنيفة جثا أي جلس جلسة التلميذ أمام محمد الباقر. ثم قال له:(الرجل أضعف أم المرأة؟ فقال: بل المرأة.ثم قال:(رجل توفي من أخ وأخت كيف يكون نصيبهما؟(قال: لذكر مثل حظ الأنثيين. لو أخذت بالقياس كان يقتضي الضعيف هو الذي يأخذ الأكثر. فهل أنا أخذت بالقياس أم بكلام الله تعالى؟.ثم قال له:(أيهما أفضل الصلاة أم الصوم؟ قال: بل الصلاة. قال: فالمرأة إذا كانت حائضا تركت الصلاة والصوم، أيهما تقضي؟ قال: تقضي الصوم. لو أنني أخذت بالقياس وتركت النص لقلت ينبغي أن تقضي الصلاة دون الصوم. فأنا ما تركت النص. وأخذ يذكر أمثلة أخرى. في هذه الجلسة دخلت محبة أبا حنيفة في قلب محمد الباقر.

وسئل أبا حنيفة ممن أنت؟ قال:(أنا ممن يتبع السلف ولا يكفر بالذنب، وممن يحب آل بيت رسول الله رضوان الله عليهم.)

مذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى:

ولد الإمام مالك سنة 93 للهجرة وتوفي عام 179 للهجرة هو)مالك بن أنس ابن مالك ابن أبي عامر الأصبحي)وعامر من كبار صحابة رسول الله رضوان الله عليهم حيث حضر مع رسول الله المشاهد كلها إلا بدر. الإمام مالك له مشايخ درس عليهم، أول إمام لزمه)عبد الرحمان ابن هرمز)من علماء المدينة و(نافع مولى عبد الله ابن عمر)و)ابن شعاب الزهري)وأخذ منهم الفقه والحديث. وأخذ أيضا من علماء الرأي منهم)ربيعة بن عبد الرحمان)الذي لقب بربيعة الرأي. ونصب مفتيا وليس له من العمر إلا سبعة عشرة عاما، وطبقت شهرته الأفاق، وأصبح الناس زرافات ووحدانا من كل الأصقاع،ومكث يفتي الناس في المدينة سبعين عاما، ولذلك يسمى عالم المدينة المنورة. ويلقب بإمام دار الهجرة. الإمام الشافعي شهد له بالمزية التي لم يرقى إليها غيره. وقال عنه)أنه حجة الله على خلقه)وقال عنه)حماد بن سلمه)الذي هو شيخ أبا حنيفة قال:(لو قيل لي اختر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم إماما يأخذون عنه العلم لرأيت مالكا هو الأهل لذلك)

كان الإمام مالك أيضا محدثا، وشهد له بذلك الإمام البخاري وقال عنه:(أصح الأسانيد مالك عن نافع عن عبد الله ابن عمر)درجة ثانية)مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه)هو الذي وضع كتاب الموطأ من أوائل ما دون في الحديث. والذي كلفه بذلك)أبو جعفر المنصور)قال له:(أنا شاء الله أن أشتغل بالسياسة، أما أنت فقد تفرغت للعلم، وانتشر الناس في بقاع الأرض وهم بحاجة أن تكون لهم مدونة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرج مدونة من حديث رسول الله ووطأه توطأ)وبقي يشتغل بالموطأ أربعين سنة، ومجموع الأحاديث بضع وخمس مائة حديث.

(الدرس15)

كان كثير التوقير للحديث إذا خرج ليحدث اغتسل ولبس أجمل وأحسن ثيابه وتطيب، وإذا سئل عن ذلك قال: ذلك حديث رسول الله يجب أن يوقر. وهذا من قوله تعالى:(ومن أراد أن يعظم شعائر الله ذلك من تقوى القلوب(

الإمام مالك كان كثير الوجل والخوف من الفتوى، كان يأتيه السائل للفتوى ويقول له أنظرني حتى أرى في هذا الموضوع. وكان إذا أراد أن يجيب يبكي ويقول:(أنا ينبغي أن أجيب جوابا ينجيني يوم القيامة إذا سئلت عنه بين يدي الله عز وجل)

جاءه رجل من المغرب يحمل سؤالا طلب منه أن يمضي إلى الإمام مالك يسأله عنه، نظر في سؤاله قال: (لا أدري) قال:(لقد حُملت هذا السؤال من مسافة ستة أشهر ماذا أقول لهم إذا رجعت؟(قال:(قل لهم إن الإمام مالك لا يدري)قال:(فمن الذي يدري إذن؟(قال:(الذي يعلمه الله)ورجع الرجل من حيث أتى. وهكذا كان شأن الإمام مالك. وقد جاءه من يحمل أربعين مسألة فقهية مختلفة، أجاب عن طائفة يسيرة منها، وجوابه عن البقية لا أدري. والرجل إذا كان يجيب عن كل مسألة تعرض عليه هذا دليل جهله، ويعتمد على جهله في الإجابة.

عن محنته:

ـ الإمام مالك وقع في محنة وذلك في عام 147 للهجرة، وقيل أن سبب المحنة أن رجلا اسمه ابن القاسم سأل مالك عن البغاة أي الخارجين عن الدولة أيقاتلوا حماية لدولة؟ قال مالك:(إن خرجوا على مثل)عمر بن عبد العزيز)يقاتلوا. قال:(فإن لم يكونوا على مثل)عمر بن عبد العزيز)(قال:(دعهم ينتقم الله بغالب من غالب)فبلغ ذلك بعض القائمين بالأمر فأخذ وعذب، حيث ضرب بسياط كثيرة وفكت ذراعه ثم مرض وأصابه سلس البول. وتوفي بمرضه ذاك سنة 157 للهجرة. لا شك أن الإمام مالك ظلم بهذا، لكن الخلفاء آنذاك كانوا كثيرا ما يمزجون بالحق مع باطل أحيانا يقعون فيه. وهم بشر.

منهج الإمام مالك في الاجتهاد: يعتمد على النص من كتاب الله عز وجل أي العبارة القاطعة على دلالة المعنى، وهناك الظاهر أي يحتمل أكثر من معنى، في القرآن إلى جانب مفهوم الموافقة مثل قوله تعالى: ((ولا تقل لهما أف))، كل ما يوافق أف منهي عنه، وهناك مفهوم المخالفة، مثلا إذا بلغ الطفل سن الرشد يخاطب وقبله لا. ويعتمد على هذا في القرآن والسنة أيضا. ثم إنه يرى الإجماع وهو يرى هنا أن عمل أهل المدينة يساوي الإجماع. وكان يرى أن رأي الصحابي إذا روى عن صحابي فتوى وكان السند صحيحا يجب العمل بقول هذا الصحابي.

وكان يأخذ بما يسمى المصالح المرسلة وهي مسألة لم يرد في ذكرها لا في القرآن ولا في السنة ولا تدخل في القياس على نظائر لها في القرآن أو السنة. ولكنها تدخل في مقاصد الشارع، وفي مقصد الدين وحفظ النسل وحفظ المال. يبني عليها حكما ضمن المقصد الذي تندرج فيه هذه المسألة. مثلا: رجل غاب عن زوجته مدة طويلة لم يعرف مكانه، زوجته وقعت في حرج، وحالتها داخلة في مقصد من مقاصد الشريعة وهي حفظ الدين. حيث يفتى لهذه المرأة حين اليأس من مجيء الزوج أن تتزوج بعد أربع سنين من الغياب.

يقول إذا كانت هناك قاعدة فقهية تستند إلى نص من القرآن أو السنة أخذ بهذه القاعدة، وإذا وجدت حديثا لكنه غير متواتر يتعارض مع هذه القاعدة، أترك الحديث وأخذ بالقاعدة. مثلا: القرآن يقول: ((ولا تزر وازرة وزر أخرى)) استنبط العلماء من ذلك قاعدة هي)أن الإنسان لا يعاقب على جريمة غيره)ثم وجدنا حديث يقول:(إن الميت ليعذب من بكاء أهله عليه)الإمام مالك قال هناك تعارض، حيث أن بكاء الأهل جريمتهم ليست جريمة الميت إذن لماذا يعذب بسببهم والقرآن يقول ((ولا تزر وازرة وزر أخرى)) هناك يترك حديث الآحاد ويأخذ النص.

مثال أخر: وجد الإمام مالك أن أهل المدينة اتفقوا على ما يلي:(إذا رفع رجل دعوة على شخص هل يقاد هذا رأسا إلى المحكمة؟ علماء المدينة قالوا لا، على القاضي أن يبحث هل بين المدعي والمدعى عليه علاقة قرابة أو شراكة أو خصومة أو أي علاقة من العلاقات قامت بينهما، إذا لم تكن هناك أي علاقة بينهما لا يقاد المدعى عليه إلى المحكمة. لوجود سفهاء بودهم جمع الأموال من أيسر الطرق غير الشرعية كي لا يجر السفهاء الفضلاء إلى المحاكم. ووجد الإمام مالك حديث يقول:(البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه)وقال أنه مخصص بما دل عليه عمل أهل المدينة.

- ويعمل الإمام مالك بما يسمى بسد الذرائع مثلا إن كانت فتنة والعياذ بالله يمنع بيع الأسلحة أي عمل مباح تحول إلى محرم، الإمام مالك يتوسع في استعمال أسلوب سد الذرائع للحيطة.

(الدرس 16)

الإمام مالك يقول أن أحكام الشريعة قسمان، قسم منها مقاصد مثل العدل، العبادات الأمر بها والمحرمات والنهي عنها. قسم وسائل لهذه المقاصد قد توصلنا الوسيلة إلى غاية مشروعة وقد تنقلب وتوصلنا إلى غاية غير مشروعة، سدا لذريعة تلك الوسيلة التي كانت مباحة أصبحت محرمة. مثلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أحكام الوسائل، لكن في بعض الأحيان تنقلب هذه الوسيلة من مندوب إلى محرم. مثلا زراعة العنب أمر مباح، قد يتحول إلى محرم إن استعمل لصناعة الخمرة سدا لذريعة. وهذا الحكم موجود عند بقية الأئمة لكن الاختلاف في مناط التحقيق.

- من الأحكام التي يأخذ بها الإمام مالك أحكام العرف وهو قسمان قولي وعملي، والعرف هو عادة أطبقت على كل المجتمع.

العرف القولي هو معنى غير موجود في القواميس وإنما تدول بين الناس مثل كلمة دابة في اللغة كل ما يدب على الأرض وفي العرف الدابة تطلق على الحيوانات الحافرة. كلمة دراهم لغة كل ما

يتعامل به في البيع والشراء. مع الزمن أصبحت كلمة دراهم تطلق على عملة معينة عند دولة ما.يقول الإمام مالك إذا اختلف معنى كلمة بين لغوي والعرفي نفسر الكلمة في الحكم الشرعي بمعناها العرفي. مثلا شخص قال والله لا أكل لحما فأكل السمك لا يحنث لأن السمك في العرف عنده لا يدخل في معنى اللحم. واحد قال والله لأتصدق بكل ما لدي من الدراهم وهي عملة رائجة في بلده أي نفسرها بالمعنى العرفي.

العرف العملي هي سلوكات يمارسها الناس و تختلف من عصر إلى عصر بسائق من التربية، الحكم مثلا في المبيعات لا يكون من ضمن المشتري إلا بعد قبضه. ويفسر القبض حسب العرف.

مثلا في موضوع مهر الزوجة في صدر الإسلام ما كان مقسم إلى مقدم ومؤخر. وتستحق المرأة مهرها عند تمام العقد، لكن مع تقدم الوقت ولأسباب معينة قسم المهر إلى جزء يقدم مع تمام العقد اسمه مقدم وجزء أخر يدفع فيما بعد تيسرا للأمر وقال الفقهاء لا مانع من دلك، لكن هناك شيء اصطدم مع القصد الشرعي الأصلي حيث هناك من اعتبر أن المهر المؤخر ليس تابعا لأصل المهر، لكن لا بل هو من حق الزوجة إلا إذا سمحت بكامل رضاها وتنزلت عنه لقوله تعالى: ((فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا)).

من الأعراف العملية، عندنا أن العدالة شرط لا بد منه في الشهادة، ومن مواصفات العدالة ما هو منصوص عليه لا يتبدل ومنا ما أحاله الشارع إلى أعراف الناس. يقول الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات من الأندلس:(يجب أن لا يمارس الشاهد أمام القاضي عملا يسئ إلى مروءته وهي الأعمال التي يشمئز منها مجتمعه الذي يعيش فيه)الإمام مالك أخذ هذا من قوله تعالى: ((خذ العفو وأمر بالعرف)).

والعرف القولي والعملي إذا اصطدما مع نص في القرآن أو السنة لا يقبلا. إذن بناء الحكم على الأعراف ذهب إليه جميع الأئمة مع اختلاف في الجزئيات.

الكتب التي دونها الإمام مالك: هما كتابان اثنان الموطأ وهو كتاب حديث وفقه وأمضى أربعين عاما في تأليفه للموطأ. الكتاب الأخر هو المدونة وهو أم الفقه عند الإمام مالك، وهذه جمعت كما يلي، أن واحد من تلاميذ الإمام مالك اسمه)سحنون)روى كل ما أفتى به الإمام مالك وكان بعيد عنه أخذ ذلك من تلميذ للإمام مالك اسمه)عبد الرحمان ابن القاسم)ثم بدأ سحنون يرتب هذا ويصنفه ويدونه. ولأمر شاءه الله عز وجل انتشر مذهب الإمام مالك في شمال إفريقيا والسبب أن رجلا اسمه)أسد ابن الفرات) هاجر من المغرب إلى المدينة المنورة وجلس إلى الإمام مالك وأمضى معه مدة

طويلة، أخذ فقه الإمام مالك وكان يدونه وعاد ورحل به إلى المغرب في ذلك الوقت المدونات الأخرى قد انتشرت.

ـ عاش الإمام مالك فقيرا وكانت له بنت صغيرة كثيرا ما تبكي من شدة الجوع ويأمر برحى حتى يتغلب صوتها على بكاء البنت فلا يفهم الجيران قصة حال الإمام مالك وجوع أولاده.

(الدرس 17)

مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

إنه الإمام الثالث الذي ظهر بعد الإمام مالك، وفقهه ظهر في وقت ازدهار الفقه الإسلامي وكمال نموه وهو الذي جمع بين فقه أهل العراق وفقه أهل الحجاز أي جمع بين فقه الرأي وفقه الحديث بشكل معتدل وعلى أساس من الضوابط، وهو الذي استنبط قواعد لفهم نصوص القرآن والسنة، أي هو واضع مبادئ صناعة الاجتهاد.

مولده ونشأته

أكثر الذين ترجموا للإمام الشافعي قالوا أنه ولد بغزة، في عام 150للهجرة أي العام الذي توفي فيه أبا حنيفة، والده إدريس قرشي مطلبي ويلتقي نسب محمد ابن إدريس الشافعي مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد المناف، نشأ يتيما في كنف أمه وعاش في أسرة فقيرة حيث بقي إلى كهولته فقيرا، أمه ارتحلت به إلى مكة، واتجه هناك إلى حفظ القرآن وسرعان ما حفظه غيبا، ثم اتجه إلى حديث رسول الله، وكان يكتب ما يحفظه من الحديث مرات على الخزف، وأحيانا على الجلود وأحيانا يذهب إلى الدواوين ليطلب أوراق الظهر أي كتب طرف وبقي الأخر بقي فترة في مكة، فلما شب على الطوق اتجه إلى البادية لقبيلة هذيل بقي فيها مدة طويلة من الزمن، اكتسب في تلك القرية أصالة اللغة العربية، ثم عاد إلى مكة يقول الأصمعي:"صححت كثيرا من شعر هذيل وأخبارهم وأيام العرب فيهم على يد فتى من قريش اسمه)محمد ابن إدريس)والشافعي وهو يتحدث عن نفسه يقول القصة التالية:"لما رجعت إلى مكة من بادية هذيل أنشد أشعار العرب والآداب وأتحدث عن أيام العرب مر بي رجل من الزبديين وأعجب بما رأي من فصاحتي وأدبي فقال لي:(عز علي أن لا يكون مع هذه الفصاحة والأدب والذكاء فقه فتكون قد سدت أهل عصرك(فقلت من الذي تنصحني للالتجاء إليه؟ فقال مالك سيد الناس في المدينة المنورة. فسألت عنه فعلمت أنه صاحب كتاب الموطأ فاستعرت نسخة من الموطأ وحفظته في تسع ليالي(واتجه بعد ذلك إلى المدينة

ليتصل بالإمام مالك عندها أخذ معه توصية من والي مكة للإمام مالك. دخل على الإمام مالك تفرس في وجهه ثم قال له الكلام التالي:"يا محمد اتقي الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن من الشأن، إن الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية)ولازم الشافعي الإمام مالك إلى 179 للهجرة. وأخذ بنصيحة مالك له ويقول الشافعي

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نـــــــــور ونور الله لا يهدى لعــاص

شعر الشافعي أنه بحاجة إلى عمل يدر له رزقا، كلَّم بعض القرشيين يسأله ويستشيره، وأرسله إلى والي اليمن ومعه كتاب له، وذهب فعلا إلى اليمن وأعطى الكتاب للوالي هناك، فنصبه والي اليمن واليا على نجران وبقي هناك مدة من الزمن، حيث شاء البارئ عز وجل أن يشي به والي اليمن، فأرسل إلى هارون الرشيد في بغداد يقول له هناك رجل اسمه)محمد ابن إدريس)ومعه تسعة نسبهم إلى التشيع)وهي تهمة كبيرة وهم خصوم للعباسيين. فاستقدمه هارون الرشيد مع التسعة، ولما وصل ومثُلَ الشافعي أمام هارون الرشيد وسمع منه. أعجب هارون بفصاحته وبيانه وأجوبته. وكان)محمد ابن الحسن)من أصحاب أبي حنيفة موجودا في بغداد ويعرف الإمام الشافعي، فشهد لشافعي أمام هارون الرشيد وقال:(هذه التهمة لا يمكن أن يكون هذا الإنسان أهلا لها فأعرض عنه ولكنه قتل التسعة الذين كانوا معه. فاستقر ببغداد وتتلمذ على يد)محمد ابن الحسن)ويقول الشافعي أخذت منه وقر بعير إلا سماعا منه، وقد خالفه في كثير من المسائل منها)قال الشافعي لمحمد ابن الحسن)أموقن أنت أن الخبر الآحاد لا يجوز أن يؤخذ به زيادة على ما في القرآن؟ قال لا يقبل الآحاد على النص فقال له:(فلماذا تأخذ بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:)لا وصية لوارث)؟ وهو آحاد مع قوله تعالى: ((كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ))، وكنت تأخذ بهذا الحديث إلى جانب هذه الآية. ووقعت مناقشات عديدة بينهما موجودة في كتاب الأم لشافعي.

أساتذة الإمام الشافعي: في مقدمتهم الإمام مالك و)مسلم ابن خالد الزنجي)وهو الذي أعطاه شهادة الإفتاء، وهو يعتبر)محمد ابن الحسن)من أساتذته.

قلنا أن الإمام الشافعي اتهم بالتشيع ووشى والي اليمن إلى هارون الرشيد، وهذا لسبب حب الشافعي الشديد لآل البيت وهذا من كمال إيمان المرء، ويبدوا أن والي اليمن كان يكرهه وجعل من محبته لآل بيت رسول الله شاهدا على هذه التهمة ولشافعي أبيات عن هذه الوشاية

إذا نحن فضلنا عليا فإننـــا روافض بتفضيل عند دوي الجهل
وفضل أبي بكر إذا ما ذكرتـه رميت بنصب عند ذكري للفضـل
فلا زلت ذا رفض ونصب كليهما أذن به حتى أوسد في التــرب

ولله الحمد قلوبنا تتسع لحب آل بيت رسول الله وأزواج رسول الله بمقدار ما تتسع لحب أصحاب رسول الله. وهذا بسبب تجليات من رحمات الله في قلوبنا.

وبسبب هذه الوشاية اقتلعه رب العالمين من عمله واليا لنجران إلى بغداد عام 184وطاب له المقام ببغداد وترك السياسة ونجران، وعاد إلى طلب العلم والفقه وما إلى ذلك، وهذا يزيدنا ثقة برحمة رب العالمين.

بعد ذلك عاد الإمام الشافعي إلى مكة وأخذ يلقي دروسه في الحرم المكي، في هذه الفترة ظهر لباب عمل الإمام الشافعي.هنا اجتمع به الإمام أحمد ابن حنبل وكان يغشى مجلسه سئل عن مجلسه هذا فقال: (أما الحديث فإن غاب عنك عاليه أحدث نازله لكن من لي بعلم هذا الفتى إن تركته) وهذه سنة العلماء المخلصين.

كان الإمام أحمد ابن حنبل يثني كثيرا الشافعي لابنته، في ليلة من الليالي استضاف الإمام أحمد الشافعي عنده وبات عنده. بنت الإمام أحمد أرادت مراقبته لاحظت أن إبريق وضوئه مازال كما هو ولم يظهر ضياء في غرفته إلى الفجر. عند الصبح قالت لأبيها:(لقد أثنيت ثناء كبير على هذا الإمام لكن لاحظت كدا وكدا فأين عبادته من عبادتك؟ لم يجبها. في الصباح جلس إلى الإمام الشافعي وقال له:(كيف كانت ليلتك؟ قال:(استنبطت الليلة من الآية الفلانية كذا من الأحكام الفقهية وأخذ يعددها له)فعاد الإمام أحمد إلى ابنته وقال:(لضجعة واحدة من محمد ابن إدريس خير من صلاة أبيك كلها)

أقام الشافعي تسع سنوات في مكة خلالها وضع القواعد التي ينبغي أن يتمسك بها المجتهد في استنباط النصوص أي استخرج القواعد من لسان ووعي العرب.أي اكتشف ضوابط الرأي ودونها. بعدها عاد إلى بغداد سنة 195 وهو يحمل في جعبته القواعد الكلية التي أصل أصولها وضبط بها المسائل الجزئية وجمعها في كتابه الرسالة. ذكر فيه حجية القرآن وحجية السنة ودلائلها ثم الإجماع، ثم ذكر حجية القياس ومعناه، ثم ذكر الاجتهاد الذي عليه أن يجتهد في محور نص. وأقام في بغداد سنتين.

ـ كان الإمام الشافعي يقدس فقه الإمام مالك تقديسا كبيرا لكن في كثير من الأحيان كان يخالف. جاء رجل إلى الإمام أحمد والإمام الشافعي جالس فقال:(إن هذا باعني قمريًا أي بلبل وقال لي إنه لا يفتر عن التغريد، ثم أخذته فوجدته يفتر عن التغريد فقال له الإمام:(لك الحق أن تنقض هذا البيع)الإمام الشافعي لحق هذا السائل فقال له:(المدة التي يغرد فيها أكثر أم المدة التي يفتر فيها؟)قال:(لا والله المدة التي يغرد فيها أكثر. فقال:(إذن البيع صحيح. فرجع إلى الإمام يقول له:(هذا الفتى يقول لي البيع صحيح. قال له:(ما حجتك؟ قال:(يا سيدي جاءت فلانة تستشير رسول الله صلى الله عليه وسلم في فلان من الصحابة يخطبها، فهل تتزوج منه أم لا. فقال عن هذا الإنسان: "إنه فتى لا يضع العصا عن عاتقه، يأتي وقت الصلاة يضع العصا عن عاتقه ينام يضع العصا عن عاتقه" أي ليس طول الوقت يضع العصا عن عاتقه. وهذا عرف يقدم عن اللغة. وعاد الإمام حمد لقول الشافعي هكذا كان التعامل بين الأئمة. والخلاف بينهم لا يفسد للود قضية.

موقف الشافعي عن الخلافة والإمامة: موقفه موقف أهل السنة والجماعة. كان يرى أن الخلافة بعد وفاة رسول الله كانت لأبي بكر ثم عمر فا عثمان رضي الله عنهم وهو الحق الذي لا خلاف فيه،ولما كان الخلاف بين معاوية وعلي رضي الله عنهما كانت الخلافة لعلي رضي الله عنه، وإنما موقف معاوية من سيدنا علي كان موقف البغي من الخليفة. وكلمة البغي في الفقه الإسلامي لا تعني الإساءة. البغاة في مصطلح الفقه الإسلامي أناس تمردوا على الدولة بحجة شرعية. لهم اجتهادهم وخليفة المسلمين مخالف لهم، وله أن ينصحهم ويردعهم، وإذا لم ينتصحوا لخليفة المسلمين أن يقاتلهم، وهم ليسوا بآثمين.

(الدرس 18)

من جملة ما يرويه الإمام الشافعي بسند أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن شيء فطلب منها أن ترجع بعد حين، فقالت أريت إن لم أراك فقال:(ارجعي إلى أبي بكر). فدل ذلك أن الذي يحل محل رسول الله هو أبي بكر.

وكان يرى أن أولى الناس بالخلافة بعد أبي بكر عمر رضي الله عنهما ثم عثمان فاعلي، وفي نفس الوقت كان يجل أهل البيت، وكان الشافعي يحب سيدنا علي حبا جما حتى اتهم بالرفض وبالتشيع بسبب شدة حبه لأل بيت رسول الله وهذا لم ينسيه أو يبعده عن حبه لجميع الصحابة

رضوان الله عليهم. وخلافة أبي بكر وعمر وعثمان كي يحظى المسلمين بخلافتهم تلك ومن أبي بكر كان محاربة الردة ومن عمر كان فتح كبير لبلاد كثيرة ومن عثمان أيضا.

يرى الإمام الشافعي أن الإمام الذي وصل الحكم بالقوة ينبغي هو أيضا أن تنقاد الأمة له ولما سئل عن ذلك قال: (هذا هو السبيل الوحيد لدرأ الفتنة) ويقول لكن بشرط أن يكون قرشي إن أمكن وكان يستدل بحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأئمة من قريش فحكموا وعدلوا فإن لم يعدلوا فلقد برئت منهم ذمة الله عز وجل ورسوله".

موقف الشافعي من علم الكلام: علم الكلام المراد منه العلم الذي يريد إثبات العقائد الإيمانية بواسطة الفلسفة، وبواسطة دلائل عقلية التي لا فائدة منها لما فيها من التنطع والتكلف.

الشافعي كان يرى أن الاستدلال بأمور العقيدة باستعمال علم الكلام لا فائدة منه لدرجة أنه كان يرى من يفعل ذلك ينبغي أن يعاقب. لماذا اتخذ الشافعي هذا الموقف ومن هم الذين يمارسون علم الكلام؟ المعتزلة هم الذين فتحوا باب الاستدلال بالأدلة الفلسفية، أي ما استغنوا بنصوص القرآن وما بينه لهم رسول الله. والمعتزلة هم أول من ترجم الفلسفة اليونانية دون فهمها وجعلوا مبادئ العقيدة خاضعة لهذه الفلسفة. لهذا وقف الإمام الشافعي هذا الموقف. والشافعي كان بصيرا بهذه الأدلة لهذا لم يكن يمارسها.

علم الكلام مادامت الحاجة غير موجودة إليه يصدق ما قاله الإمام الشافعي. حيث إذا كانت النصوص القرآنية كافية لغرس العقيدة في القلوب يحرم أن أتبع هذا المنهج الفلسفي. الإمام الغزالي له كلام فصل في هذا حيث يقول:(علم الكلام مثل الدواء، والقرآن مثل الغداء وهو الفعال الذي يدخل نور الهداية في قلبك، أما علم الكلام ينبغي أن توفره للحاجة) (تتمة الموقف من درس 20).

الشافعي كان يبغض هذا الطريق ويقول:(الخطأ في أمور الفقه قصارى ما يتسبب عن الخطأ في فهم الحكم، لكن اعتماد علم الكلام في تثبيت المبادئ العقيدة الخطأ فيها يزج في الكفر)لكن الإمام الشافعي في الوقت ذاته كان خبيرا بعلم الكلام أي خبير بدلائل العقلية التي تدعم نصوص الشريعة من قرآن وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، إذن إعراضه عنه لم يكن نتيجة قصور أو جهل. وكان إذا ألجأ إليه لا يسكت أي إذا جاءه مفتون بعلم الكلام ومفتون بأدلة عقلية تتعارض مع النصوص وجاء يعارض الإمام الشافعي عندها لا يسكت. مثلا: جاءه رجل اسمه)بشر الميرسي)أخذ يسأل الإمام الشافعي عن الأدلة العقلية على نبوة رسول الله صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم. الإمام الشافعي

حدثه عن الأدلة العقلية المختلفة وناقش بشر ورد عليه.كما اضطر أن يتحدث في خلق القرآن، كما أفتى في أمور تدخل في علم الكلام.

وسئل الشافعي عن مسألة فعل الإنسان أهو من خلق الله أم خلق الإنسان فقال:(إنا الفعل من خلق الله، والإنسان يحاسب على الكسب أي القصد أو العزم وليس الفعل).

كتاب الرسالة:

الفترة التي مكث فيها الشافعي في مكة بعد عودته من بغداد وهي تسع سنوات تعتبر لب حياته العلمية. أرسل إليه)عبد الرحمن ابن مهدي)يطلب منه أن يوفيه برسالة، يبين فيها علاقة القرآن بالسنة.وأصول البيان التي ينبغي أن يعتمد عليها في فهم نصوص القرآن، ويتحدث عن الناسخ والمنسوخ والعلاقة بينهما، وعلاقة القرآن بالسنة فيما يتعلق بذلك. وأن يتحدث عن الاجتهاد وضوابطه)فعكف الإمام الشافعي في الاستجابة لهذا الطلب. وكان عبارة عن كتاب ما بين خمس مائة إلى الستين صفحة. وهي أول مدونة دونت في وضع القواعد الأساسية للاجتهاد أي ما يسمى بأصول الفقه أو علم تفسير النصوص. وحافزه في ذلك ليس فقط الرسالة التي طلبت منه، وإنما عند إقامته بالمدينة وحضوره دروس الإمام مالك، وبعد ذلك ذهب إلى اليمن واتهم وسيق به إلى بغداد كما قلنا ووجد نفسه هناك أمام)محمد ابن الحسن الشيباني)وأمام فقه الإمام أبا حنيفة طاب له المقام هناك، وتحول من تلميذ للإمام مالك إلى عالم يحاول أن يوفق بين علم أهل الحجاز وفقه أهل العراق، عن طريق وضع قانون يلتجئ إليه الطرفان في تفسير النصوص وفي أصول الاجتهاد، هذا هو الحافز الأول للإمام الشافعي في كتابته لكتاب الرسالة. ومبحثه الأول هو البيان وأنواعه، ثم تحدث عن علاقة القرآن بالسنة وبين التكامل بينهما، ثم تحدث عن النسخ ومعناه وقال لا ينسخ القرآن إلا القرآن ولا تنسخ السنة إلا السنة ويقول:(إذا وجدت قرآن ينسخ سنة فلا بد أن تجد مع القرآن سنة تؤيد تلك السنة، وإن وجدت سنة قد نسخت قرآنا فلا بد أن تجد مع القرآن المنسوخ أية تدعم تلك السنة)ثم تحدث عن الاجتهاد وقال أنه لا يوجد إلا على نص في القرآن أو السنة أو على علة توصلك إلى نص موجود. وينتهي إلى أن الاجتهاد والقياس شيء واحد، ثم تحدث عن الإصطصلاح و الاستحسان. ويقول من استحسن فقد شرع أي من استحسن إيجاد حكم شرعي لا دليل له، ولم يعتمد على الاجتهاد الذي ضبطه بضوابط فقهية، فهذا مشرعا ولا مشرع إلا الله سبحانه وتعالى.

بالنسبة لأبي حنيفة يستعمل الاستحسان بأدلة ومثال ذلك للاستحسان عند أبا حنيفة الذي ذكرناه في الشهود الأربعة للفاحشة واختلاف أوصاف الحادثة. أي الشافعي ينهى عن الاستحسان بدون دليل.

(الدرس 19)

ـ كتاب الرسالة كان له دور كبير في الجمع بين مدرستي الرأي بالعراق والحديث بالمدينة حيث أن الشافعي ذهب إلى أهل الحجاز قائلا لهم لا مانع من الاجتهاد لكن وفق هذه الضوابط حيث تقيسون ما لا نص عليه على ما وجد عليه نص، ضمن قواعد مثل ما استنبط الشافعي من قوله تعالى: ((ما جعل عليكم في الدين من حرج يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)) قاعدة وهي)أن الضرورات تبيح المحظورات)وقاعدة أخرى)إذا ضاق الأمر اتسع)عملا بقوله تعالى: ((يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)) وبهذا تقرب أهل الحجاز من مدرسة العراق.

كما اتجه الشافعي إلى أهل العراق ووضعهم أمام قواعد، ينبغي أن ينضبطوا بها عند الاجتهاد، وهكذا اصطلحتا المدرستين في عهده. والشافعي لم يخترع القواعد وإنما اكتشفها وفقا ما كان يعمل به الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم.

ـ اتجه الإمام الشافعي في أواخر أيام حياته إلى مصر عام 198 للهجرة، وأقام هناك بقية حياته وهناك انبثقت له فكرة مذهب جديد غير رأيه بالنسبة لكثير من الآراء التي كان قد أفتى بها في العراق ومكة. حيث في مصر اطلع على أحاديث لم يكن قد عرفها من قبل وأمور جديدة، وناقش كثير من العلماء هناك، ودون مذهبه الجديد في كتاب له كبير اسمه)الأم)فيه حوالي اثنا وعشرين مسألة من رأيه القديم يفتى به الآن. وهناك من يقيس نفسه بالشافعي ويجيز على نفسه تغير مذهبه، نقول لهذا أن الشافعي قبل أن يغير مذهبه كان قد وصل إلى أعلى شأوٍ في دراية القرآن ودراية السنة وحفظ كتاب الله، ومعرفة اللغة العربية وهذا مفتاح الاجتهاد في كتاب الله وسنة رسوله، ولغة الإمام الشافعي يحتج بها.

بقي الإمام الشافعي بمصر أربع سنوات وبضعة أشهر وتوفي إثر ذلك. وجل عطائه كان في مصر. كان الشافعي مضرب المثل في الكرم والشجاعة والنجدة، وكان قد أمضى الشطر الأكبر من حياته وهو فقير.وكان شديد الورع كثير العبادة، ورقيق القلب، وكان شاعرا.

عندما دخل في سياق الموت دخل عليه بعض أصحابه يعودونه ويسألونه كيف حالك وقال:(أُراني والدنيا مفارقا، ولأصحابي مفارقا، وإلى الله مقبلا، فلا أدري أألقى مغفرة وعفوا فأهنئ نفسي بها، أم ألقى عقابا على تقصيري فأعزي نفسي بها. ثم أنشد هذه الأبيات:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت الرجى مني لعفوك سلما

فمازلت ذا عفوٍ ذا صفح عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

أصحاب الإمام الشافعي أي تلامذته:

من أبرز أصحابه)الربيع ابن سليمان المرادي(وهو الذي روى كتابه الأم وهذا بتدوين كل ما كان يقوله عند حضوره مجالسه. من أصحابه أيضا)إسماعيل ابن يحي المزني(وهو أيضا مصري ومن أخص تلامذته، ثم إنه تمرس بالحديث ثم أصبح مجتهدا مطلقا. ومن أصحابه)أبو يعقوب يوسف ابن يحي البويطي(و بويط قرية من قرى صعيد مصر، وهو من أجل تلامذته، ثم من أبهر علماء الشريعة الإسلامية، وكان معروفا بالورع والزهد والتقوى. وجد قاضي آنذاك بمصر حسد أبو يعقوب هذا فوشى به إلى الخليفة، فسيق إلى بغداد من مصر وسجن بتهمة أنه يقول(أن القرآن قديم وليس بمخلوق)عندها المعتزلة سيطرت على عقول الخلفاء منهم الواثق، وطلب منه أن يرجع عن رأيه أي أبو يعقوب فرفض فسجن. وبقي في السجن إلى أن توفي. وكان من عادته كل يوم جمعة يغسل ثيابه ويغتسل ثم يمشي متجها إلى باب السجن، فإذا رآه السجان قال له إلى أين؟ يقول:(أستجيب دعاء ربي)ويقول ارجع يرحمك الله. فيقول:(اللهم إني قد استجبت دعاءك ولكني منعت)

الشافعي أيضا امتحن بهذا حيث أتي له بمصحف وقيل له قل هذا مخلوق، فوضع يده بالمصحف وقال هذا مخلوق. ويقصد الغلاف الجلد الحبر كله مخلوق.

الإمام أحمد أيضا طلب منه ذلك فقال اذهبوا وانظروا كم واحد بالباب ينتظر كلامي؟ فوجدوهم بالمئات فقال:(كيف أقول شيئا يسجل علي ولعلى فيهم من لا يعلم قصدي)

انتشر مذهب الإمام الشافعي في ربوع الجزيرة العربية، وفي مصر، وفي العراق.

(الدرس 20)

مذهب الإمام أحمد رحمه الله تعالى:

ولد الإمام)أحمد ابن حنبل)في بغداد عام 164 للهجرة وتوفي رحمه الله تعالى عام 242 للهجرة، ولد من أبوين عربيين، ويتصل نسبه إلى قبيلة شيبان بل يتصل إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم عند)نزار ابن معاد(ونشأ يتيما وكان فقيرا معتزا متعففا متساميا على العطاء. نشأ في عصر المتوكل وكان يحبه ويعطف عليه وكان يرسل إليه العطاء ويرده أحمد العطاء بتواضع جم حتى لا يجرح المعطي.وجهته والدته إلى حفظ القرآن، والتلقي يكون من أئمة تلقوه هم أيضا من الأئمة الذين كانوا من قبلهم وهكذا.ثم اتجه به أهله بعد ذلك إلى الديوان أي المدرسة الإبتدائة ليتعلم الكتابة وتوابعها. ويقول الإمام أحمد عن نفسه:(كنت غليمًا أختلف إلى الكتاب ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن أربعة عشرة)وقد اشتهر مند صباه بالتقوى والورع والصبر والشدة في احتمال المكاره في سبيل العلم. حبب إليه العلم واتجه إليه بكليته واختار منها الحديث، كان أستاذه الأول)القاضي أبو يوسف)وكان يتلقى منه فقه الرأي في بغداد، مع الزمن تغلب عليه نزعة الحديث فانقطع عن أبا يوسف وواصل تعلم الحديث. ولما استكمل منهجه العلمي، عاد فأخذ يدرس الفقه. أي بعد أن تسلح بمعرفة الحديث أصبح لا يخشى على نفسه الابتعاد عنها بفقه الرأي. وحبب إليه الهجرة حيث هاجر خمس مرات من بغداد إلى الحجاز، وهاجر إلى البصرة واليمن، حيث وضع خطة لنفسه أن يذهب سنة 198 حاجا إلى بيت الله، ومن هناك إلى اليمن ليأخذ الحديث من)عبد الرزاق)وصاحب معه)يحي بن معين)وأثناء الطواف بالكعبة صادفا)عبد الرزاق)يطوف معهما، فقال له)يحي ابن معين)لقد كفانا الله مئونة الذهاب إلى اليمن. قال أحمد:(لا ولقد عزمت الذهاب إلى اليمن من أجل التلقي ولسوف أضاعف الاستفادة)استفاد منه في مكة وذهبا إلى اليمن وبقي فيها سنتين.

(الدرس 21)

الإمام أحمد حبب إليه العلم وطلبه و الترحال من قطر إلى أخر من أجل تلقي العلم من علماء تلك الأمصار، وكانت له حافظة قوية، وكان يحمل حقيبة كتبه على ظهره وهو مسافرا من بلد إلى أخر، ومعه محبرته وقراطيسه وقد لقيه مرة أحد أصحابه من العلماء وقال له:(إلى متى تطوف بالبلاد وتحمل هذه المحبرة معك؟(فقال:(من المحبرة إلى المقبرة)وهكذا العالم كلما ازداد معرفة دلته هذه على مسافات ومساحات جهله. حج الإمام أحمد خمس مرات وحج ثلاث منها ماشيا، ويقول عن نفسه أنه ظل الطريق مرة من هذه المرات، وكان يصيح قائلا:(يا عباد الله دلني على الطريق ويكرر ذلك

)حتى فتح الله عليه وعرف الطريق ومشى عليه. ولعله علم ما رواه عن رسول الله: "إذا شردت لأحدكم ناقة أو نحو ذلك في البيداء فلينادي يا عباد الله احبسوا يا عباد الله احبسوا"، وكثيرا ما كانت هذه الكلمة سببا لوقوف الناقة حيثما كانت، وعباد الله للجن المسلمين مثلا أو للملائكة. الإمام أحمد معروف بشدة تمسكه بالنص وبالسنة، وعدم انحرافه إلى البدعة. والعلم هو الوحيد الذي يمكنه أن يفرق بين السنة والبدعة. أي الإتباع و الابتداع.

الإمام أحمد لم يبتدع عند قوله يا عباد الله وإنما استنجد بجنود الله تعالى.

جل رحالات الإمام أحمد كانت من أجل رواية الحديث عن رسول الله ﷺ، ولكنه في إحدى هذه الحجج الخمسة، لقي الإمام الشافعي وجلس إليه فانبهر بعلمه وظل يجلس إليه، وأخذ منه قواعد الاستنباط، ومبدأ الناسخ والمنسوخ في كتاب الله وقواعده.

خلال حياته كلها لم يجلس الإمام أحمد للفتوى ولا لرواية الحديث إلى أن أصبح عمره أربعين عاما جلس لتحديث أي يروي لناس أحاديث الرسول ﷺ وجلس للفتوى أيضا، أي بيان أحكام الحلال والحرام. وتأخره هذا رغم تمكنه لدرجة أن الشافعي كان يستشيره في الحديث،هذا لشدة ورعه وكان يهاب هذا المجلس، ومجلسه للفتوى كان أشد منه حرصا، وكان ينكر على من يكتب في مجلسه ذاك خوفا أن يعود في تلك الفتوى ولا يستطيع أن يترقب من هؤلاء أحد ويخبره عن تغيره الفتوى ويطلب منه تغير ما كتب.

آراؤه في العقيدة الإسلامية:هل كانت متفقة كل الاتفاق مع أراء أهل السنة والجماعة؟ ليس فيما كان يتبناه الإمام أحمد من مسائل العقيدة، الإيمان بالله وصفاته، الإيمان بالقضاء والقدر و خالقية الله للأفعال...لا يوجد أي فرق بين ما يعتقده هو وأهل السنة والجماعة.

الذين يكفرون مرتكب الكبيرة هم الخوارج أما أحمد لا حيث سئل أحمد عن رجل رِؤيا يشرب خمرا، هل نكفره بذلك؟ قال:(لا فلعله يشربها وهو يعلم أنها محرمة، حتى تسأله، فإن قال لك: أنه يستبيحها فا عندئذ يكون قد خرج من الملة، لا بشربه لها، وإنما لإنكاره بحرمتها.

- ويقول في القضاء والقدر ما يقوله غيره وأنه لا يقع في الكون إلا ما يريده الله عز وجل. وأفعالنا كلها مخلوقة بخلق الله عز وجل. وكان دائما يقول هكذا ورد عن رسول الله وهكذا كان أصحاب رسول الله

ـ وكان يعتقد أن كل صفات الله تعالى هو ما أتبثه لذاته في قرآنه وهي قديمة قدم ذاته العلية، ويقول أن كلام الله صفة من صفاته.ومن هنا كان يؤكد ويقرر أن القرآن ليس بمخلوق ومن ثم فهو قديم.وقال عن القرآن أنه علم الله، وعلم الله قديم قدم ذاته. ويعتقد أيضا برؤية الله تعالى في الآخرة.

موقف الإمام أحمد من الخلفاء: عندما سئل عن خليفة ظهر فيه الفسق الذي هو مرتكب كبيرة لم يتب منها أو أصرَّ على صغيرة، هل يفسد الفسق خلافته ومن ثم يجوز لنا الخروج عليه؟ فقال:(لا يجوز الخروج عن الخليفة ولو كان فاسقا. لأن هذا يزج الأمة في ضرر أشد من ضرر فسقه، هنا لا سمع ولا طاعة فيما يخالف أمر الله تعالى، ولكن الخروج عليه شيء أخر. ولا يجوز الخروج عن الخليفة إلا إذا رأت منه الأمة كفرا بواحًا).

(الدرس 22)

مسند الإمام أحمد: بدأ الإمام أحمد بجمع المسند منذ أن كان عمره ستة عشرة عاما حيث يجمع الروايات التي تلقاها من مشايخه، والذي رتبها ترتيبها الأخير هو ابنه)عبد الله)رحمه الله وجعل منها مسندا. الفرق بين المساند والسنن إن السنن أحاديثها مرتبة حسب أبواب الفقه، أما المساند فأحاديثها مرتبة حسب الصحابة، الأحاديث التي جمعها الإمام أحمد من مرويات)عبد الله ابن عباس)و(عبد الله ابن مسعود)و)زيد ابن ثابت)وهكذا، في الحقيقة الأجل داهم الإمام أحمد وهو لا يزال يجمع، ولذلك قام ابنه عبد الله بما لم يستطع القيام به والده من ترتيب المسند.

مسند الإمام أحمد فيه أحاديث ضعيفة كما أجمع العلماء، كما لا تجد فيه حديثا موضوعا قط وهو الذي تبث أن الرسول لم يقله، والضعيف هو الذي لم توجد فيه شرائط الحديث الصحيح.والصحيح هو الذي رواه العدل الضابط عن مثله إلى منتهى النبي عليه الصلاة والسلام دون وجود شدود ولا علة. هناك المرسل أي رواه التابعي مباشرة عن رسول الله وسقط الصحابي. وأضاف الترمذي الحسن. وهناك مراسيل مقبولة مثل المروية عن)سعيد ابن المسيب)

ـ الإمام أحمد فسح مجالا للأحاديث الضعيفة لكونها ليست مرفوضة دائما، والذي يرفض منها هو ذاك الذي لا يوجد حديث آخر قوي يدعمه. وقد يكون موضوع الحديث الضعيف داخل في فضائل الأعمال أي في طاعات توافرت أدلة كثيرة عنها مثلا: حديث يروي فضل الصلاة على رسول الله ﷺ. حديث يبين لنا أهمية الصدق وأثره في حياة الإنسان. حديث يتعلق بنوافل الصلاة.

ـ الإمام أحمد لا يروي الحديث إلا بسنده، والعلماء يقولون من أسند فقد أسلمك، أي سلم إليك مسؤولية معرفة مستوى الحديث.

هل كان الإمام أحمد فقيها أم محدثا: الطبري وابن قتيبة و آخرين اعتبروا الإمام أحمد محدثا ووصفوه بهذا لعدة أسباب منها:

أولا لأن اهتمامه الشديد كان لرواية الحديث

ثانيا اهتمامه بمسنده، وليس له كتاب في الفقه.

ثالثا لما جلس للفتوى وكان هذا بعد المحنة لم يكن يأذن للجالسين أن يكتبوا عنه الفتاوى التي يتحدث بها، لشدة ورعه وخوفه من الرجوع عن تلك الفتوى إما لخطأ أو وجود رأي أقوى.

القول الفصل أن الإمام أحمد كان محدثا أولا، وكان فقيها ثانيا. وعرفنا أنه جلس للإمام الشافعي سنوات في بغداد ومكة، وأخذ منه الكثير ولكنه لو يدون مدونة في الفقه. وكثير ما نجد في كتب الحنابلة أن للإمام أحمد أكثر من رأي في بعض المسائل.

الصفات التي ظهرت في حياة الإمام أحمد: هناك خمس صفات أحصاها له الذين تحدثوا عن حياته هي:

أولا الحافظة القوية وكان هذا مند صغره ولا يجلس مجلسا إلا ونهض وقد وعى ما سمعه.

ثانيا الصبر على الشدائد خاصة أثناء رحلاته وصبره على المحنة التي مني بها مدة طويلة وكان صبره جميل دون تأفف ومصدره الاحتساب عند الله والجلد.

ثالثا نزاهة النفس والعفة كان فقيرا وفي نفس الوقت متعففا مترفعا عن الطلب، حيث كان لا يقبل عطاآت المتوكل له بعد المحنة. وكان زاهدا ولا يرضى أن يدخل جوفه إلا الحلال. دخل عليه يوم رجل من أصحابه اسمه)عمر ابن صالح الطرسوسي)قال:(يا أبا عبد الله ما السبيل إلى رقة القلب؟)قال:(أكل المال الحلال)فذهب هذا السائل ورأى)بشر الحافي)سأله السؤال ذاته فقال له:(ألا بذكر الله تطمئن القلوب)فقال ولكني سألت الإمام أحمد وقال)أكل المال الحلال)قال نعم هذا هو الأصل.

رابعا الإخلاص لله تعالى هذا الذي صبره وجعله يفطم فمه عن المال الحرام وجعله يرضى بالمحنة وقلبه بعيدا عن الحقد لاسيما للذين أنزلوا به هذه المحنة.

خامسا الهيبة كل الذين عاشروه وصفوه بهذا رغم تواضعه، حيث كان الجد يغلب على حياته، حتى شيوخه كانوا يهابونه.

شيوخ الإمام أحمد: إن شيوخه كثيرون قيل بلغوا المائة بسبب تنقلاته من مكان إلى مكان لطلب العلم، وكان له شيخان يعتز بهما وأحدهم له التأثير الكبير عليه كمحدث واسمه)هشيم ابن

بشير)درس عنده خمس سنوات وهو الذي رسخ في كيانه حب الحديث وروايته. شيخه الثاني هو)الإمام الشافعي)رسخ في كيانه حب الفقه. وكان للإمام أحمد صديق اسمه)إسحاق ابن رهويه(رآه يوما وقال له:(يا أبا يعقوب اقتبس من هذا الرجل فإنه ما رأت عيناي مثله)عن الشافعي.

للإمام أحمد شيخان لم يراهما وكان يسمع عنهما ويحاول أن يتأسى بهما تأسيا دقيقا أحدهما)سفيان الثوري)والثاني)عبد الله ابن المبارك)

(الدرس 23)

عندما نرى إلى مناقب سفيان الثوري نجد أن الإمام أحمد يتصف بها، وكان يقول عنه:(لا يتقدمه في قلبي أحد)وكان يصفه وحده بكلمة الإمام، وكان في بعض المناسبات يقول لبعض أصحابه:(أتدري من الإمام؟(ويقول:من؟ ويقول:(الإمام هو سفيان الثوري.

- وعن مناقب)سفيان الثوري ما يلي:

أولا عاش فقيرا، وكان يعيش على ميراث وصل إليه من عمه وعاش به، وكان لا يقبل هدايا وأعطيات

ثانيا كان صريحا في نصائحه للخلفاء، وربما أغلظ القول إذا اقتضت المناسبة، مثلا لقيه أبا جعفر المنصور في المسجد الحرام مصادفة، فأمسك جعفر بتلابيب سفيان ووجهه إلى بيت الله الحرم وقال:

(سألتك بربي هذه البنية أي رجل تراني؟(فقال:(برب هذه البنية بأس الرجل أنت)أجابه هكذا لأنه أمسكه بتلابيبه وأقسم عليه.وأبا جعفر طلب أبا سفيان بعد ذلك للقضاء، فتحامق حتى يتركه وشأنه، ولما آل الأمر إلى المهدي بعد أبي جعفر المنصور غضب عليه المهدي وتهدده، ففر سفيان الثوري وخرج من البلدة كلها وعاش غريبا ومات غريبا سنة 161 للهجرة.

ثالثا كان يؤثر العزلة والخمول أي الابتعاد عن الشهرة، وكان بعيدا عن الرئاسة وأصحابها.

- وشيخه الثاني)عبد الله ابن المبارك)كان صاحب مال وفير، والجامع المشترك بينه وسفيان الثوري الورع والزهد والابتعاد عن الوظائف، وإيثار الخمول والعزلة. إذن الزهد لا علاقة له بالغنى أو الفقر.

(عبد ابن المبارك)عاصر الإمام أحمد وبلغه يوما أنه بالعراق فسعى إليه ليلقاه ويجلس، ولما شد نفسه إليه، قيل له قد سافر، وما مضى سنة أو أكثر إلا وقد جاءه نبأ وفاته هذا عام 181 للهجرة.

- وعن مناقب)عبد الله ابن المبارك)

أولا كان شديد الورع، رفيع الأخلاق، بعيدا عن الجاه والسلطان. ثانيا وكان غني وكثير العطاء ز وكانت له عادة أنه عندما يتجه حاجا إلى بيت الله الحرام يأخذ معه عدد من الفقراء الذين يقصدون الحج، ويقول لهم هذا صندوق لوضع تبرعاتكم من المال وليس منا من يمتن على صاحبه، ثم يتجه بهم من بلاد فارس إلى الحجاز، وعند العودة يسأل عن الهدايا التي يريدون الرجوع بها إلى أهليهم، النقود من الصندوق ويشتري لهم الهدايا حيث بلغت. ويرجعون ويكرمهم في المحطات. وعندما يُرجع لهم أموالهم وزيادة. وإذا سألوا قال:(هذا هو الصندوق والله عز وجل بارك)

ثالثا كان مجاهدا حيث ما من غزو إلا وخرج معهم، وكثيرا ما بارز رجالا من صناديد الأعداء،وكان يبارز مثلثما. رابعا كان عالما بالحديث.

خامسا كان عبد الله ابن المبارك في صدر حياته محبا للغناء والعزف، في إحدى الليالي نهض وخرج تحت ظل شجرة يعزف، وإذ بغصن من أغصان تلك الشجرة يخاطبه ويقول له:(ليس هذا شأنك الذي هيأك الله سبحانه وتعالى له)ومنذ تلك الساعة توجه هذا التوجه الأخر.

وهكذا عاش حياته مضرب المثل بالجود والعطاء والورع،و الابتعاد عن المراكز. وعندما دنا موته، كان في الطريق مرض مرضا شديدا، فقال لغلامه اجعل رأسي على التراب، فتردد الغلام وبكى. قال: ما يبكيك؟ قال: أذكر ما أنت فيه من النعيم، وأنت تموت هكذا غريبا وتقول لي ضع رأسي على التراب. فقال له:(أسكت فإني سألت الله تبارك وتعالى أن يجنبني جباه الأغنياء، وأن يميتني ميتة الفقراء. ثم قال له:(لقني الشهادة، ولا تعد علي إذا لم أتكلم بعد ذلك بشيء. ولما وقع في سياق الموت، فتح عينيه وتبسم وقال:(لمثل هذا فليعمل العاملون)وقضى نحبه، توفي في السحر و قبر في إحدى بلاد الفرس. وهذا التبسم مصداق قوله تعالى: ((إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا و أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم)). وهذا لمن أحب الله أن يختم له بخاتمة حسنى.

الأصول الاجتهادية التي سار عليها الإمام أحمد: أي أصول الاستنباط في الشريعة الإسلامية يروي لنا)ابن القيم)في كتابه)إعلام الموقعين)بيانا مفصلا في منهج الإمام أحمد في الاجتهاد:

أولا: المصدر الأول في استنباط الأحكام هي النصوص من القرآن والسنة، فإذا وجد للحكم بيانا من القرآن أو السنة، لم يبتغي بذلك بديلا، وهذا المتفق عليه بين الأئمة.

ثانيا: بحث عن حكم ولم يجد له نص عندها يعتمد على فتوى الصحابة إذا لم يعلم مخالفا للحكم. من أمثلة ذلك: إذا شهد رقيق أمام القضاء هل تقبل شهادته؟ بحث عن رأي الصحابة وجد أنهم يجمعون على أن شهادة الرقيق تقبل، فقضى بذلك...

(الدرس 24)

ـ ويقول في اعتماده على فتوى الصحابة، لعله سمعها من رسول الله أو ممن سمعها من رسول الله ولم يرفعها إلى رسول الله، وحكمها حكم المسند إن كانت تطابق الدين أو ربما الصحابي استنبط هذا الحكم من القرآن مما خفي عليَّ، أو ربما هي فتوى إتفق عليها الصحابة كلهم ولكن لم يبلغ لنا ذلك.

إذا اختلف الصحابة فإن الإمام أحمد يأخذ برأي الذي تسكن إليه نفسه.

ـ الإمام أحمد يعترف أن الإجماع مصدر من مصادر الشريعة، ويقول في نفس الوقت أنه من العسير ذكر أحكام تستند إلى الإجماع، لأن إذا كان العلماء في مكان ما وزمان معين اتفقوا على حكم ما ليس بالضرورة أن يعم ذلك الحكم جميع الأمكنة والأزمنة، هذا هو رأي الإمام أحمد. والإمام أحمد عندما ينقل حكما من الصحابة أو التابعين يقول لا أعلم خلافا لهذا، ولا يقول أرى إجماع على هذا.

الإجماع يرفع دلالة النص إلى القطع وكثيرا ما يقول الإمام أحمد أجمعت الأمة مثلا على حرمة الخمر والربا، وعلى وجوب الصوم وغيرها.

ـ القياس يأتي بعد انعدم النص في القرآن أو السنة لحكم ما وكذلك لم يرد عند الصحابة فتوى له، يلجأ الإمام أحمد للقياس، ويقصد بالقياس وجود مسألة تشبه التي نحن بصدد البحث عن حكم لها ونقيس عليها.وتشبهها من حيث العلة التي حرم لأجلها ذلك الشيء المنصوص عليه في القرآن أو السنة، مثلا وجود أشربة تسكر مثل الخمرة فإنها تحرم مثل الخمرة التي ذكرت في القرآن.

ـ إن لم يتمكن من القياس أيضا، يعتمد الإمام أحمد على مصادر فرعية منها

الإصطصحاب ويعني أن ما تبث في الزمن الماضي نحكم أنه تبث في الزمن الحاضر وفي المستقبل وما لم يأتي لينهي وجوده وهناك قاعدة تترجم هذا وهي_(اليقين لا يزول بالشك)، ويعتمد أيضا هذا

خاصة في المعاملات. ويشتد الإمام أحمد في العبادات، مثال: في الإصطصحاب تبثت ملكية فلان لعقار ما لا يلغيها شك أو ريب حتى تلغى الملكية بيقين أيضا. مثال أخر: صياد أصطاد حيوان فوقع في البحر أو بركة ولا يعلم بعد ذلك أهو مات بالصيد أم بالغرق عندها يحرم أكله لأن الأصل في الحيوانات الحرمة حتى يثبت العكس بتزكية أو صيد.

(الدرس 25)

المصالح المرسلة: يأخذ بها الإمام أحمد مثل الإمام مالك، والفرق أن الإمام مالك ثم هذا المصدر باسمه، والإمام أحمد يأخذه تماما، لكنه يدخله في القياس، ويقصد بها أن مسألة لم نعثر عليها لا في القرآن ولا في السنة ولا فتوى لصحابة فيها، ولم نجد مجالا للقياس، لكن وجدنا أن الأخذ بمشروعية هذه المسألة يحقق مقصد من مقاصد الشريعة الخمسة وهي الدين، والعقل الحياة، النسل، المال مثلا: حفظ القرآن بين دفتين يدخل في حفظ الدين. مثال أخر: الضرائب التي تأخذها الحكومة من الناس نقول هذا جائز لأنه داخل في المصالح المرسلة المسكوت عنها والداخلة في مقصد من مقاصد الشارع.

الإمام أحمد يجمع بين الانضباط التام والتوسع والتبسط من أجل تيسير الأمور للمسلمين عن طريق هذه المنافذ.

(الدرس 26)

سد الذرائع: هذا تعبير عن مصدر فرعي من مصادر الشريعة الإسلامية، معناه أن الشارع جل جلاله إذا كلفنا بأمر فكل ما يتعين إلى سبيله فهو أيضا مأمور به، وكل ما نهانا عنه الشارع وكل ما يؤدي إليه يصبح منهي عنه.والإمام أحمد مع الإمام مالك يبالغون بالأخذ بمبدأ سد الذرائع مثال: البارئ عز وجل أمرنا أن نتحابب ونتألف ونهانا عن التباغض، ومن وسائل التحابب التزاور، عيادة المريض. ومن الوسائل التي تثير التباغض وتغذيه منها الخطبة على أخيه المسلم، أو السوم على سوم.. والقاعدة تقول أن الوسائل تأخذ حكم المقاصد.

نقطة الخلاف بين الأئمة هي في مباح أحله الشارع لكن في الناس من يستعمله لمحرم، فالإمام أحمد يحرم ذلك المباح والشافعي لا يحرمه كليتا مثل: العنب نوع منه يستغل لصناعة الخمرة يحرم بيع ذلك النوع ولا يحرم العنب كلية عند الشافعي.

(الدرس 27)

محنة الإمام أحمد: بدأت المحنة في عصر المأمون من الخلفاء العباسيين، واستمرت واشتدت في عصر المعتصم، ثم في عصر الواثق،وانتهت في عصر المتوكل. سببها أن المأمون أحاط نفسه بثلة من المعتزلة وكانوا قد فاروا فورتهم ولهم آراؤهم الجانحة، وكانوا أشداء في النقاش والجدل، ويعتمدون في ذلك على الفلسفة وعلم الكلام، ومن المسائل التي تبناها المأمون وإذ بها من رأي المعتزلة، مسألة صفة الكلام لله عز وجل. (وعند أهل السنة والجماعة أن الكلام من صفات الله عز وجل، والقرآن أعلن عن ذلك: ((وكلم الله موسى تكليما))، ونحن نعلم أن صفات الله عز وجل قديمة قدم ذاته، إذا كلام الله عز وجل قديم، والمراد بالكلام هو النفسي وليس الألفاظ التي ننطقها ولا الكلمات التي نكتبها على الورق فهي مخلوقة. المعتزلة قالوا أن كلام الله تعالى مخلوق أي ما سطر باللوح المحفوظ وما نقرأه من هذا الكلام من القرآن، فأهل السنة والجماعة قالوا نعم نحن نوافقكم في هذا فهذه مخلوقة، والحروف التي تنضم إلى بعضها لتكون كلمات القرآن أيضا مخلوق، إلا أن لله عز وجل صفة هي مضمون تلك الكلمات أي المعاني التي يخاطبنا بها الله عز وجل وهي من النوع الكلام النفسي وهو معد كي يخاطبنا به الله تعالى وهي من صفات الله تعالى. المعتزلة قالوا إن كان الكلام عن قصص فهي من علم الله تعالى وإن كان من الأوامر والنواهي فداخل في صفة الإرادة، ونحن نقول إرادة وعلم الله شيء، وكلامه النفسي شيء آخر).

والإمام أحمد كان شديد الورع ولم يشأ أن يفرق بين لفظ ومعنى، ولذلك كان يقول كلام الله قديم، فالمعتزلة ألهبوا مشاعر المأمون ضد الإمام أحمد وكان فيهم)أحمد ابن أبي دؤاد، فطلب من المأمون أن يأتيه بالإمام أحمد ويناقشه في هذا. فجيء به إلى مجلس المأمون سأله عن كلام الله قال:(كلام الله صفته وهي قديمة قدم ذاته)وسأله عن معنى كلام الله واللوح المحفوظ. عندها لم يشأ الإمام مالك أن يفرق بين لفظ ومعنى. وأسر على قوله. وبدأت محنته من هنا. وطلب منه أصحابه

أن يفصل، وقال:(أنا إذا فصلت اليوم وعلم قصدي العلماء الذين من حولي، فإن عوام الناس يسمعون ما قلت، لن يفهموا قصدي، وأنني أقصد اللوح المحفوظ والحروف التي تلاقت... والصحابة ما فصلوا ويسعني ما وسعه الصحابة رضوان الله عليهم)و لما توفي المأمون أوصى أخاه المعتصم أن يشتد على الإمام أحمد ويلزمه أن يقول أن كلام الله مخلوق، أو يسجنه ويعاقبه، وفعلا حبس الإمام أحمد من أجل هذا، واشتدت المحنة عليه وصبر صبرا كبيرا.

(الدرس 28)

عندما أخذ الإمام أحمد إلى المأمون وهو مقيد، إلى مكان يسمى رحبة ببغداد، فجاءه خادم يبكي ويقول له:(يعز علي يا أبا عبد الله أن أقول لك أن المأمون قد سلَّ سيفا، لم يسله من قبل، وأنه يقسم بقرابته وبرسول الله لئن لم تجبه بخلق القرآن ليقتلنك)فجثا الإمام أحمد على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء وقال:(غرَّ حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بضرب والقتل، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فكفينا مؤونتهم)في تلك الليلة وفي ثلثها الأخير صاح صارخ ينادي بأن المأمون قد مات، وعاد أحمد أدراجه. والذي تولى الحكم من بعده المعتصم، وقد أوصاه أخاه بأن تشتد وطأته على الإمام أحمد وأمثاله والذي زاد الأذى اقتراب)أحمد ابن أبي دؤاد(من المعتصم، فاشتد على الإمام الأذى، وسجن ثمانية وعشرين شهرا موثقا بأغلال ثقيلة جدا، وكان يصلي بأهل السجن إماما بأغلاله. بعد مرور المدة أُحْضِرَ إلى المعتصم كي يلزمه ويضغط عليه ليقول أن القرآن مخلوق، وجيء إليه وجلس وبدأ الكلام الإمام قائلا:(يا أمير المؤمنين إلى ما دعا ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال:(إلى شهادة أن لا إله إلا الله)فقال:(وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، فلماذا أهدرت دمي؟(استدعى المعتصم بعض رؤوس الاعتزال ليناقشوه ومنهم)أحمد ابن أبي دؤاد(قال له أحدهم:(ما تقول في القرآن؟(فقال له الإمام أحمد:(ما تقول في علم الله عز وجل)؟فسكت المعتزل. تابع الإمام أحمد وقال:(القرآن علم الله، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر) وجعل المعتزلة يحتجون عليه بقوله تعالى: ((ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدثٍ إذا استمعوه وهم يلعبون))، وقوله تعالى: ((الله خالق كل شيء))، وهي حجج إما لإنسان جاهل أو متعصب حيث كلمة محدث وصف للإتيان، وليس وصف لذكر، وكلمة شيء في الآية الأخرى هي التي لا علاقة لها

بذاته.فأسكتهم الإمام أحمد. ولم تقم لهم حجة أمام المعتصم. وعدلوا إلى طريقة أخرى وهي استثارة الخليفة ومكانته. فقال له

(أحمد ابن أبي دؤاد":"هذا لا يمكن أن يكون العالم ماذا سيقول أن هذا تغلب على خليفة، فاستجاب لاستثارتهم وأمر به فضرب ضربا مبرحا. وندم المعتصم بعد ذلك. وبعد أن مات المعتصم جاء ابنه الواثق، سلك نفس الطريق ولكن ليس بضراوة ذاتها التي مارسها أبوه، وبعد الواثق جاء المتوكل الذي رفع المحنة. وكان شديد الحب لأهل السنة والجماعة وانتصر للإمام أحمد. وأصحابه قالوا له:(أدعوا الله لابن أبي دؤاد)فسامحهم جميعا. فقال لهم:(ما يفيدك أن يعذب أخوك من أجلك في النار؟". المتوكل أرسل للإمام أحمد مبلغ قدره عشرة ألاف دينار، فرفض أن يقبلها قال له رسول المتوكل إليه:ط يا سيدي أخشى إن رفضتها أن يتسبب ذلك بحفيظة في نفس المتوكل عليك)وبات تلك الليلة فاستدعى كل من يعرف من الفقراء والمحدثين... فوزع تلك الأموال كلها عليهم.

أحمد ابن حنبل هو الوحيد الذي نجا من المحنة والآخرون ماتوا كان أحدهم)محمد ابن نوح ابن ميمون(و(نعيم ابن حماد الخزاعي)و)أبو يعقوب ابن البويطي)صاحب الإمام الشافعي وهذا الذي قلنا عنه عند سماعه أذان صلاة الجمعة يجر نفسه إلى الباب.... و(أحمد ابن نصر الخزاعي)

إذا الإمام أحمد كان مضرب المثل في الصبر والصفح على الأخر من خلال ما عرفنا في محنه تلك.

مذهب الأوزاعي

هناك مذاهب لم يكتب لها الانتشار بسبب عدم وجود تلامذة لهم ينشرون منهجهم وأرائهم منها مذهب)الإمام الأوزاعي)وله أراء واجتهادات رائعة واسمه)عبد الرحمان ابن محمد)وهو دو أصل يمني وولد في بعلباك بلبنان عام 88 للهجة، وكان أهل الشام يسيرون وراء اجتهاده، وكان موجود أيام الإمام أبا حنيفة.

مذهب الإمام داوود الظاهري ولد عام 202 للهجرة من أبرز من اتبعه)ابن حزم)وهو من الذين يأخذون بظواهر النصوص، ولم يكن يأخذ بالقياس، وكان معجب بفقه الإمام الشافعي.

وهناك مذاهب أخرى مثل مذهب ابن أبي ليلة و)سفيان الثوري)

السؤال: هل يجوز لنا أن نتبع واحد من هؤلاء المذاهب التي لم تدون ولم تصل إلينا مناهجهم تماما؟ الجواب أن هؤلاء الأئمة ليسوا بأقل شأنا من الأئمة الأربعة، لكن كثير من العلماء تحفظوا في إتباع مذاهبهم، لأننا في شك من الآراء التي دونت هل هي لهم أم لا؟

ما حكم تقليد المسلم للمذاهب الأربعة؟ الجواب أن الواجب الأساسي الذي يخاطب الله به عباده به، هو أخذ شريعة الله من كلامه أي من القرآن والسنة، وإذا كان هذا المسلم لم يتأتى له تعلم القرآن ومنهج استنباط الأحكام من النصوص، القرآن والسنة ففي هذه الحالة يصدق عليه قول الله تعالى: ((فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)).

في هذه الحالة يجب على هؤلاء إتباع أئمة من الأئمة الأربعة،كل متاب باجتهاده ويحق لك إتباع أي واحد منهم ولست ملزم بواحد منهم طيلة حياتك.

ـ وهناك من يقول أنا لا أغير مذهبي، لكن وقعت في مأزق وأنا أضطر أن أغير مذهبي في هذه المسألة فقط، ووقعت في مأزق أخر أضطر إلى إتباع إمام أخر. نقول يجوز لك ذلك بشرط التعرف الجيد لأقوال الأئمة في تلك المسائل. ولكن بشرط أن لا تقلد أكثر من إمام في مسألة واحدة، فهذا تلفيق وهذا يشبه رجل مريض اشترى دواء أعطاه له طبيب ودواء أخر من طبيب ثاني فأخلطهم، لا هو اتبع الأول أو اتبع الثاني.

(الدرس 29)

إن تعدد المذاهب مبعث للإتحاد والتعاون على نقيض ما قد يتصوره البعض، وهي متكاملة فيما بينها، وكل إمام من الأئمة على يقين أن رأيه ليس هو الثابت ويفترض في غيره الصواب وهو صاحب الحق.وبهذا أصبح طريق المسلمين واسع، والسير وراء أي واحد هو مسلك لله تعالى. والأئمة كل واحد في مدح للأخر واحترام لرأيه.وقد وجدت الاختلافات في الأحكام الفقهية منذ عهد رسول الله، وكان موقفه صلى الله عليه وسلم التأيد والتشجيع لهذه الاجتهادات، وقد يبرر رأي و يخطئ رأي الأخر. مثال ذلك ما فعله الصحابة في تطبيق قول الرسول)ألا ليصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة)وكل كيف فهم قول الرسول... وأثنى الرسول لكلا الفريقين.

ورد في الصحيح أن رجلا دخل المسجد لصلاة الجماعة مع المسلمين وكان النبي قد ركع فأسرع الرجل ليدرك الركعة، فعلم المصطفى ما فعل الرجل قال له:(زادك الله حرصا، لكن امشي رويدا)ولم يعنفه على اجتهاده.

مثال أخر: (عمار ابن ياسر)كان في سرية من السرايا أجنب ولم يجد الماء فتمعك بالتراب، ولما وصل إلى رسول الله ما أنكر عليه اجتهاده ولم يكفره. وإنما قال له:(أما كان يكفيك ضربتان على التراب وتنفخ يديك وتمسح بهما وجهك ويديك.(

وفي عهد الصحابة وجدت المذاهب لكن لم تدون أرائهم أمثال)عبد الله ابن مسعود)و(عبد الله ابن عباس)و)زيد ابن تابت)و(عبد الله ابن عمر).

نتساءل هل وجدت أفات لحقت المذاهب الأربعة؟ نعم هناك من أهمها وأخطرها:

أن بعض أصحاب الفرق الإعتقادية دفعتهم العصبية إلى كثير من أفكارهم الإعتقادية والسياسية آنًا على المذاهب الفقهية، أي هم اختلفوا عن جمهرة المسلمين ببعض المعتقدات ن لكن ما يتعلق بالأحكام الفقهية ليس لهم موقف خاص من المفروض أن يندمجوا ضمن مذهب معين، لكن ساقتهم عصبيتهم إلى الإنفراد بمذهب فقهي خاص بهم. مثال ذلك الإباضية وهم معروفون بورعهم واستقامتهم ولهم آراء لا تخرج عن أراء المذاهب الأربعة، ولهم آراؤهم الخاصة في المجال الإعتقادي وهذه عصبية ننكرها. وشيعة أيضا لهم آراؤهم الإعتقادية الخاصة بهم عن أول خليفة، وشروطه من العصمة وأن يكون من آل بيت رسول الله وهنا من يقول أنه منصوص عليه في القرآن، هذه أفكار إعتقادية شكلت فرقة الشيعة، وأحكامهم الفقهية كلها ينقلونها من آل بيت رسول الله وهي من)زيد ابن علي)وعن)محمد الباقر)و"جعفر الصادق). وجميع أئمة المذاهب جلسوا إلى هؤلاء وتعلموا منهم. إذن فقههم هو نفسه فقه بقية المذاهب، وهؤلاء اتخذوا لأنفسهم مذهبا خاصا بهم، لأنهم بعد وفاة آل بيت رسول الله اشترطوا لأنفسهم شروطا لم يشترطها الأئمة من قبلهم، مثلا اشترطوا أن لا يروى حديث، ولا تفسير لكلام الله إلا من معصوم. وأن يكون من آل بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم، في حين الأئمة الذين اتبعوهم كانوا يروون عن غير آل بيت رسول الله. لهذا وجدت العصبية، ووجد من ينكر المذاهب.

(الدرس 30)

الدور الخامس:

وهذا الدور يبدأ من منتصف القرن الرابع إلى سقوط بغداد، أي عام 656 للهجرة. من أهم ما تميز به الدور مايلي:

أولا ما يتميز به هذا الدور توقف وجود مذاهب جديدة فيما يتعلق بالشريعة الإسلامية

ثانيا التقليد هو السائد في المجتمعات الإسلامية،أي إتباع المسلمين على مختلف مستوياتهم العلمية لمذاهب السابقين.

ثالثا علماء المسلمين في هذا العصر اتجهوا إلى تدوين المذاهب، وإلى التعليق عليها، وإلى شروح مؤلفات كتبت بالقرن الرابع، وإلى كتابة ما يسمى بالحواشي والهوامش.

رابعا أيضا نجد أن هناك من أفتى بغلق باب الاجتهاد.

قسم كبير من علماء العصر يتصور أن هذا مظهر من مظاهر التخلف العلمي الديني في هذه المرحلة، تصورا منهم أن التطور يكمن في نشأة مذاهب واستمرار ذلك.ويحيلون الأمر إلى الواقع السياسي، حيث أصبح العالم الإسلامي يعاني من انقسامات، وتحول الدولة الإسلامية إلى دويلات، وهكذا انشغلت بالأمور السياسية، وتخلت عن العلوم.

والأمر في الحقيقة ليس كذلك، وعدم ظهور مذاهب جديدة في نهاية الدور الرابع لا علاقة له لا بالتقدم أو التخلف، بل المسألة أن أئمة المذاهب الأربعة وضعوا مناهج لاجتهاداتهم، ودونوا علم تفسير النصوص أي علم أصول الفقه، أي قواعد تفسير النصوص، والمساحة التي يمكن أن يتحرك فيها المجتهد سدت كلها في الدور الرابع، ولهذا لا يمكن لعلماء الدور الخامس أن يخترعوا مذهب جديد، وهو شاء أم أبى سيكون شأنه شأن التابع، ولو كان)الإمام الغزالي)أ و)العز ابن عبد السلام)أو)الفخر الرازي)أو)ابن دقيق العيد)عاشوا في الدور الرابع لرأينا أنهم أبدعوا المذاهب، ولو أن العكس الأئمة الأربعة عاشوا في الدور الخامس لما تمكنوا من إبداع مذاهب.

مثلا قواعد اللغة العربية في صدر الإسلام دونها علماء عرب أمثال)أبو الأسود الدؤلي(وغيرهم حيث رأوا إلى ألسن العرب وبدؤوا يدونون، ولا يمكن لغيرهم من بعدهم أن يغيروا ويبدلوا.

(الدرس 31)

علماء الدور الخامس هم مجتهدين في المذهب و آلية استنباطهم للأحكام يستعملون قواعد أئمتهم، مثلا في القياس يكون ضمن علة مؤثرة بين المسألتين، ويقصد بالمؤثرة عند الشافعي أي ضمن نص. علماء هذا الدور لا يمكنهم التحرك إلا ضمن قواعد أئمتهم.

مزايا الدور:

من أبرزها تعليل الأحكام مثلا الإمام الغزالي يجد أن الإمام الشافعي بين في كتابه الأم، أن البنت التي جاءت من سفاح أي زنى ليست بنته، ويمكنه التزوج بها، الغزالي علل أن البنت في القرآن يفسر بالحقيقة الشرعية أي ابنته شرعا وليس بالحقيقة اللغوية أي من مائه.

ترجيح قول على قول مثلا الإمام الشافعي روي له قولان، مسألة أخرى كل إمام وله رأيه فيها، وفقهاء الدور الخامس ينقلون دور الأئمة، ثم إنهم يقفون موقف القاضي هذا الرأي أرجح، ذاك الرأي مرجوح، أي قد يخالف أحدهم إمامه، ومن هنا وجد في هذا الدور ما يسمى بالفقه المقارن، مثلا الإمام أبو حنيفة يقول أن الواقف يستطيع متى شاء أن يعود في وقفه إلا إذا سجل هذا الوقف في وثائق الدولة، وكثير من علماء الحنفية قالوا فيما بعد أن رأي الإمام الشافعي هو الأصح، وقالوا أنه لو أن أبا حنيفة رأى حديث سيدنا عمر عن أرض خيبر ودله رسول الله أن يوقفها...مثال أخر العز ابن عبد السلام)كان شافعي وله كتاب)قواعد الأحكام في مصالح الأنام)يتحدث فيه عن كراهية الإستواك بعد الزوال بالنسبة لصائم، وهذا لأن رائحة فم الصائم أطيب من المسك عند الله تعالى، كما جاء في الحديث،)العز ابن عبد السلام)يرجح حديث رسول الله:"لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بسواك عند كل صلاة). من المرجحين)ابن القيم)و)ابن تيمية)و)النووي)

شرح المؤلفات وهذا مظهر إيجابي ميز هذا الدور مثلا)الإمام النووي(ألف كتاب في الفقه اسمه)المنهاج"وجد له شرح من طرف)الإمام ابن حجر)في كتاب اسمه)تحفة الفقهاء في شرح المنهاج)في عشر مجلدات. الإمام النووي شرح كتاب)المهذب)لأبي إسحاق الشرازوي)في تسع مجلدات، وتوفي وقد وصل إلى باب البيوع، لو أتمه لوصل إلى ثلاثين مجلد.

تدوين قواعد الفقه: أي أحكام كلية يعبر عنها بكلمة جامعة تندرج تحته مئات الجزئيات الفقهية، وكثير من العلماء شرح هذه القواعد، مثلا

ـ قاعدة تقول)المشقة تجلب التيسير)أخذت من أحكام التيسير في الإسلام

و قاعدة)العادة محكمة)أخذت من أن أي قاعدة فقهية ليس فيها نص نرجع فيها إلى العرف وحديث لرسول الله يؤيد هذا في قوله:(ما رآه المسلمين حسنا فهو حسن)

ـ و قاعدة(الضرر يزال)وجاءنا هذا من كلام النبي:(لا ضرر ولا ضرار)أي لا يجوز لأخيك أن يبدأك بضرر، ولا يجوز لك أن تقابل الضرر بالضرر.

ـ وقاعدة:)اليقين لا يزول بالشك)مثلا شخص توضأ وخرج من بيته، ثم بعد ذلك شك هل هو مازال على وضوئه أم لا؟ وهنا يقينه السابق يغلب شكه اللاحق.

ـ وقاعدة)الأمور بمقاصدها)أي قصدك على شيء يظهر في الفعل، وأخذت القاعدة من كلام النبي:(إنما الأعمال بالنيات)إذا النية هي التي تتحكم في الصحة والبطلان وفي الثواب والعقاب.

ـ قاعدة)الضرورات تبيح المحظورات)

وهذه القواعد استنبطها العلماء إما من القرآن أو السنة، أو من أحكام جزئية دائمة التكرار.

(الدرس 32)

ما الفرق بين قواعد تفسير النصوص وبين القواعد الفقهية؟ وجدت القواعد الفقهية أو ما يسمى بنظريات الفقهية في هذا الدور، وهي القواعد التي فسرناها من قبل.

قواعد تفسير النصوص هي مفاتيح فهم نصوص القرآن والسنة وتكون قبل الاجتهاد في فهم واكتشاف الأحكام، أما قواعد الفقه العكس حيث تصاغ بعد وجود الأحكام الفقهية، عندها تستنبط مما قد فهمت قواعد كلية

وكلما كان الإنسان في مشقة جاءه التيسير من المشرع جل جلاله، كا تقصير في الصلاة عند السفر أو أكل محرم عند الجوع الشديد، من هذا جاءت قاعدة)المشقة تجلب التيسير)وغيرها وهناك كتب في هذا منها

(الأشباه والنظائر) للسيوطي. وهذا العمل قام به علماء الدور الخامس.

خصائص الدور الخامس

ـ استقلال الناس بإتباع المذاهب: أي أصبح كل بلد يتبعون مذهب معين، وحتى في الأدوار السابقة تقيد الناس بالمذاهب، وهذا شيء طبيعي لعدم تساوي الناس في العلم، وهذا كان حتى في عصر الصحابة.

ـ من خصائص هذا الدور أيضا وجود مذاهب لم تعش إلى هذا الدور، أي غابت ولم يعد الناس يعلمون مصيرها مثل مذهب)عبد الرحمان ابن أبي ليلة)مذهب)سفيان الثوري)مذهب)الحسن البصري)مذهب)الإمام الأوزاعي). اندثرت لأنها لم تدون، ولم يوجد لهم تلاميذ يدونون لهم. لهذا الإتباع يكون لمن دونت اجتهاداته.

ـ من خصائص الدور أن الفتوى والقضاء أصبح مختصا بمذهب من المذاهب، حيث في السابق المفتي يجتهد ويفتي دون الرجوع إلى مذهب ما، لكن في هذا الدور إذا كان المفتي بلغ درجة النووي والغزالي في الإجتهاد يفتي حسب اجتهاده، لكن في أواخر هذا الدور القرن الثامن والتاسع والعشر، فإن المفتي متقيد بمذهب، وحتى إن كان المفتي أهل الاجتهاد فإن السائل يبحث عن جواب حسب مذهبه، وكذلك القضاة حسب المذهب.

ـ الدولة تتبنى مذهب من المذاهب، وفي هذا الدور ظهرت الدولة العثمانية، وكان جلهم أتراك يلتزمون بمذهب أبي حنيفة، وبتالي الخليفة والقاضي والمفتي كلهم أحناف.

ـ جل العلماء في هذا الدور كانوا أفذاذ من الأساطيل منهم)الإمام الغزالي)و)النووي)و)كمال أبن الهمام(من الأحناف و)الإمام القرافي)من المالكية وألف كتاب)الفروق)و((علي ابن حزم)الذي أوجد المذهب الظاهري وأصله شافعي و)العز ابن عبد السلام)صاحب كتاب)قواعد الأحكام في مصالح الأنام)الإمام السرخسي)الذي أملى كتابه الكبير المبسوط وهو في البئر على تلامذته، حيث كان مسجون،و(الإمام ابن تيمية)مجتهد وهو حنبلي المذهب.

ـ ومن خصائص العصر وهي من مزايا الدولة العثمانية، وهو ظهورمجلة أحكام الخلافة العدلية، حيث وجدت لجنة من كبار الفقهاء قننوا كل المسائل الفقهية التي تتعلق بالمعاملات المالية من بيوع و رهون وشركات، أي صيغت مواد بحيث يسهل للقاضي والمفتي والمحامي أن يعود إلى هذه المراجع، ولم تؤخذ الأحكام فقط من المذهب الحنفي، إذن هنا اتسعت المسألة وفيها نوع من المرونة لناس، ويؤخذ من المذاهب أيسرها ليسهل على الناس تطبيقها.والمجلة موجودة.

ـ ظهور مجلة أحكام العائلة أي الأحكام الشخصية حيث قننت جميع الأحكام الشرعية الخاصة بالزواج والطلاق والنفقات والأسرة وما إلى ذلك. والمجلة موجودة لمن أراد الرجوع إليها.

ـ علماء هذا العصر درؤوا أنواع من الشر تسربت إلى المجتمعات الإسلامية، لم تكن تسربت من قبل، ووقف العلماء من ذلك بالمرصاد منهم)الإمام الغزالي)موقفه من تيارات الفلسفة اليونانية التي كادت أن تهيمن على أفكار الناس و)الإمام النووي)موقفه من الظاهر بيبرس.

(الدرس 33)

الدور السادس:

بدايته من أواخر القرن الثالث عشر للهجرة إلى يومنا هذا، كثيرون هم الذين ينعتون هذا الدور بدور النهضة الفقهية، ودور الرجوع إلى الاجتهاد، ودور اليقظة، وكأنه أفضل من الدور الخامس. هذا الكلام ليس صحيحا وسماه الشيخ بدور الدسائس التي تم محاولة إقحامها في بنيان الفقه الإسلامي من طرف أشخاص معينين.

ـ وهناك أيضا علماء ظهروا في هذا الدور أمثال)الإمام الباجوري)و)الشيخ زكريا الأنصاري)و)الإمام ابن عادين)صاحب الحاشية، وجاء من بعدهم علماء كثيرون لم يتحدثوا عنهم، ونجد ترجمتهم في مجلة نور الإسلام، وهي مجلة الأزهر القديمة، والتي كانت تصدر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ثم تحول اسمها إلى مجلة الأزهر. ومجلة نور الإسلام كانت المجلة الأولى التي تحدثت عن الإسلام وفقهه، وعقائده،وتفسير كتاب الله والحديث في العالم الإسلامي كله. وكان لها كتاب والغريب أنهم لا يسلطون الضوء على علماء الدور السادس مثل)الشيخ الخضر الحسين)و)إبراهيم البجاري)و)الشيخ يوسف الدجوي)وهم من العلماء الأفداد، والأزهر آنذاك كان يقوم على جهودهم، والسبب أنهم كانوا أمناء على شرع الله عز وجل، ولم يكن الواحد منهم ليفتح باب تغير وتبديل ودس، وهذا لم يرق أصحاب التجديد.

ـ لنسلط الضوء على أناس جاءوا في هذا الدور، ثم ازدادت فاعليتهم كلما تقدم الزمن مع الأسف، وفي نظر الكتاب هم أساطيل هذا الدور منهم)محمد ابن عبد الوهاب(الذي ظهر في نجد والمتوفى عام 1206 للهجرة،)جمال الدين الأفغاني)المتوفى عام 1314 للهجرة، وهو من علماء الصحوة الفقهية. و)الشيخ محمد عبدو(الذي توفي عام 1323 هـ وما قيل في هؤلاء ليس كذلك، حيث كان)جمال الدين الأفغاني(ليس معروفا بالفقه، ولم نجد له رسالة صغيرة في الفقه، له مجلة اسمها)العروة الوثقى)كانت تصدر في أوروبا مدة معينة ثم توقفت، وكانت مجلة فكر وثقافة وليست في الفقه.

(محمد ابن عبد الوهاب"، بدَّل وغير وهو حنبلي المذهب، وجاء بأشياء خالفت مذهبه وإمامه، ولم يكن له باع في الفقه. لو قلنا)ابن تيمية)نعم رجل مجتهد على رغم من اختلافاتنا معه في بعض اجتهاداته وهو حنبلي المذهب.

(جمال الدين الأفغاني(إذا أصغيت إلى ما قالت الملاحدة عنه رأيتهم يقدسونه تقديسا غريبا وعجيبا، عند قراءة ما كتبه ابن أخته عنه في كتاب اسمه)حقيقة جمال الدين الأفغاني)يقول أن جمال الدين إيراني ولم يكن أفغاني أبدا، ويقول قد دخل المحفل الماسوني في عام كذا، و اختير رئيس المحفل في مصر، وقال أن البهائي أرسل له رسالة، وكتب نصها، يمدحه ويبجله ويقول أنهما رفيقان في المعتقد. إذن هو بهائي المعتقد.(والشيخ كتب عن هذا في كتابه)شخصيات استوقفتني)وعلى القارئ أن يحكم). وقد أوصل نفسه إلى السلطان)عبد الحميد)ظن به خيرا، والسلطان كان من الدهاة،

حيث جعل استخباراته يتابعونه ويراقبون أوضاعه، ثم كشف علاقته ببريطانيا، فأبعده عن حظيرة الخلافة...

(الشيخ محمد عبدوا(من علماء الأزهر، له مرحلتان في حياته، الأولى قبل أن ينفى لا نعلم عنه إلا الاستقامة، لكنه لما رجع من المنفى تغير رأسا على عقب وهنا تعرف على)جمال الدين الأفغاني(وجعل من نفسه من أبر تلامذته، وأفتى على كثير من القضايا التي أجمعت الأمة على بطلانها أفتى بصحتها. ولنتأمل الرسالة التي أرسلها إلى شيخه)جمال الدين الأفغاني(من كتاب)حقيقة جمال الدين الأفغاني)جزء الثاني،(يمكنكم الرجوع إليها استماعا إلى بعض فقراتها من درس تاريخ التشريع رقم 32 دقيقة 28)

وهي كلها كلام كفري، يقدس فيها شيخه كأنه إلهه و العياذ بالله، وأي مسلم قرأ كلامه ذاك علم أنها ليست من مسلم. ووجد تلامذة لهؤلاء بالأزهر ساروا على منهجهم أمثال)محمد شلتوت)رحمه الله، وعند مرض موته قال للحاضرين:"إني أشهدكم عن الضلالات التي أفتيت بها في كتبي....)

إذن هذا الدور هو دور دسائس ممن ارتدوا كسوة الإسلام،وكسوة الفقه الإسلامي حاولوا أن يدسوا في شريعة الإسلام ما ليس فيها. كما أنه يوجد أناس حراس على دين الله ورقباء على أنفسهم. لكن مع الأسف إشتهر الدساسين أكثر من غيرهم لوجود من طبل لهم وشهر بهم.

(الدرس 34)

مظاهر الظلال والتيه:

الدعوة إلى تجديد علم أصول الفقه، هو طرح لم يفكر فيه علماء الأدوار السابقة أمثال الغزالي أو القرافي أو الإمام الشاطبي، لأن قواعد أصول الفقه لا يمكن أن تخضع لتجديد مثلها مثل قواعد اللغة العربية التي اكتشفها علمائها من اللسان العربي.

وعلم أصول الفقه يتضمن:

جزء أول هي مقدمة تتحدث عن مصادر الشريعة والتعريف بها.ثم التحدث عن المصادر الفرعية لشريعة الإسلامية مثل:(الاستحسان سد الذرائع المصالح المرسلة المسؤولية التبصيرية.

الجزء الثاني من هذا العلم عنوانه الدلالات أي كيف تدل الكلمة على معناها، حيث تدل أنًا بمنطوقها، وآنًا بمفهومها مثل قول الله عز وجل: ((ولا تقل لهما أف))، وأف تدل على كل المعاني الموافقة من سب وضرب وغيرها.

جزء ثالث اسمه فصل البيان يتضمن أن الكلمة التي تدل على المعنى أحيانًا تكون خاصة مثل اقرأ هذا الكتاب، وقد تكون عامة مثل اقرأ كل ما يفيدك، وأحيانا تكون الكلمة مطلقة تدل على واحد أي كان بمعنى شائع في نوعه مثل اقرأ كتابا، تصدق على فقير.

جزء النسخ ما معنى النسخ وما هي شروطه ودلائله.

هذا هو علم أصول الفقه أو كما يسمى علم تفسير النصوص وعلمائه أصغوا إلى كلام الصحابة وكيفية تفسيرهم لنصوص، وكيف يستدلون بالكلام على المعنى، وكيف يستخرجون الحكم من ألفاظ النصوص القرآن أو السنة، ما يتعلق بالأمر والنهي والمندوب وغيرها، ولما أصغى إليهم أخذ يسجل القواعد من اجتهاداتهم. وسجل الشافعي هذا في كتابه الرسالة.

وهكذا فإنه بتغير قواعد أصول الفقه، فإن أحكام الشريعة تكون مهددة بتغير أيضا، وبتالي الحرام يصبح حلال والمندوب مكروه وهكذا، يعبثون بالقرآن الكريم تحت دعوة تغير قواعد أصول الفقه. وتنطلق الفكرة من أناس يدعون أنهم غيارى على الدين، لكن الواقع أنهم زنادقة. وإذا سئل هؤلاء لما التغير في كلام أخذ من لسان العربي؟قالوا الرسول أمر بتجديد في قوله:(إن الله يبعث في رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها)وقالوا هكذا يكون التجديد بتغير أصول الشريعة والفقه. هذا عبث بكلام رسول الله

لنلاحظ كلمة التجديد والفرق بينها وبين التغير حيث أن التجديد هو المحافظة على الشيء مع إظهار بيانه لناس،حيث أن مع طول الوقت تظهر شبه في بعض الأحكام، فيبعث الله عز وجل من يصفي هذه الأحكام الثابتة من دين الله من هذه الشوائب. والرسول الذي أمر بتجديد و نهانا عن التغير. حيث أن الرسول لما دخل البقيع قبيل وفاته فيما يرويه مالك وغيره فسلم على أهل البقيع ثم قال:"وددتُ لو أني رأيتُ إخواننا"، فقال له أحد أصحابه:(ألسنا إخوانك يا رسول الله؟)قال: "بل أنتم أصحابي وإخواني أولائك الذين لم يلحقوا بعد، وسوف أكون فرطا لهم على الحوض –أي يستقبلهم–"، فقال أحد الصحابة: (أوَ تعرفهم يا رسول الله)؟ قال: "أرأيتم لو أن رجلا له خيول غرٌ محجلة وسط خيول دهمٍ بهم –أي سوداء– أفكان يعرفها"؟ قالوا: (نعم) قال: "وأنا أعرفهم غرا محجلين من أثر الوضوء" ثم قال: "ألا لا يزادنَّ رجالا عن حوضي كما يزاد البعير الضال، فأقول ألا هلم ألا هلم فيقال إنك لا تدري كم بدلوا من بعدك، فأقول فسحقا فسحقًا فسحقا".

مقاصد الشريعة هي خمسة وهي الدين، العقل، الحياة، النسل، المال وتبنى عليها أحكام الشريعة، وهناك من يتلاعب ويقول هناك مقصد سادس هو العدل. وهو يدخل ضمن الأحكام. والدين مبني على العدل.

(الدرس 36)

ـ ظهور اتحاد العالمي للعلماء المسلمين فهذا من حيث المبدأ شيء جيد، لكن عند التدقيق نجد أن هذا الإتحاد يضم خليطا حيث فيهم العلماء، وفيهم أنصاف العلماء، وفيهم من ليس مختص بالفقه الإسلامي مثل مختص بالفلسفة، التاريخ أو القانون وغيرها، ومركزه في أوروبا. وهذا الإتحاد في الواقع أوجدته أيد حزبية، وبتالي فإن المصلحة الحزبية هي التي تحكمت وكان بديلا عن العلم، والمسألة الفقهية عندما تطرح لهؤلاء للبحث النتيجة التي ينتهى إليها تتم برفع الأيدي أي طريقة ديمقراطية، وهذا غير موجود في أحكام الشريعة الإسلامية، وتلك الطريقة يمكن تطبيقها في الأمور الإدارية لدولة. وحكم الله ليس منوط بالْكَمْ، وخاصة فيهم من ليست له خبرة في الفقه فضلا عن الاجتهاد. وهذا الإتحاد طلب منه إيجاد تجديد وحلول لمسائل أناس يعيشون بالغرب، شيئا فشيئا أوجد ما يسمى

بفقه الأقليات ونسبوه إلى الشريعة الإسلامية، حيث رأى أعضاء هذا الإتحاد أن الفئة التي تعيش في أوروبا من المسلمين وهم أقلية، قال ينبغي أن يكون لهم فقه خاص وجاءوا بعلل عن ذلك، بناء على ذلك فوجئنا بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان. مثل قولهم بجواز نسبة من الربا لهؤلاء وغيرها. وهذا خطير في حياتنا الدينية، حيث أن الشريعة الإسلامية أحكامها ثابتة في جميع الأوطان والأزمنة. وهناك قواعد فقهية تفتح مجال لتيسير عندما يشتد الأمر ويضيقأي عند الضرورة، وهي قاعدة تطبق أينما كنت. ولكن عند الحاجة لا يوجد تيسير لمحرم أينما كنت.

(الدرس 37)

مظاهر إيجابية في الدور السادس:

طرح ما يسمى بالاجتهاد الجماعي، الناس متفاوتون في علمهم بأحكام الشريعة، وأناس هيأهم الله تعالى إلى الوصول إلى استنباط الأحكام من النصوص، وكلا الفريقين مقبول ومرضي عند الله عز

وجل. والحقيقة أنه في هذا الدور لا نكاد نجد من وصل إلى مرتبة الاجتهاد، في مظلة الأئمة الأربعة، وشروط الاجتهاد قل ما تتوفر في علماء اليوم ومنها:

ـ معرفة اللغة العربية من قواعد وبلاغة، وهذا شيء عسير في هذا الوقت.

ـ لابد للمجتهد أن يكون ذا دراية واسعة بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، من حيث قواعد الرواية، والإسناد، ومن حيث معرفة معاني الأحاديث.

ـ الإحاطة بآيات الأحكام في كتاب الله عز وجل.

ـ المجتهد ينبغي أن يكون بصيرا باجتهادات الصحابة في الشريعة، التي اتفقوا فيها والتي اختلفوا فيها.

ـ أن يكون ذا بصيرة بقواعد تفسير النصوص أي علم أصول الفقه.

هذا العصر تولدت فيه أمور جديدة، ومشكلات جديدة لم تكن من قبل موجودة، وهي تحتاج إلى معرفة حكم الله فيها، والأمر يحتاج إلى من يعلم. هذه الأمور منها ما يتعلق بجسم الإنسان وحياته أي الطب مثلا موت الدماغ موت أم لا؟، نقل الأعضاء من شخص إلى شخص. هناك أمور متعلقة بالاقتصاد، والنظم الجديدة في المعاملات المالية المختلفة وغيرها.وكلها بحاجة إلى معرفة حكم الله فيها. والحل الذي طرح هو اللجوء إلى الحل الجماعي، حيث أنه باجتماعهم فإن ضعف الواحد منهم،يقوى برأي الجماعة.

وباللجوء إلى الاجتهاد الجماعي وجد ما يسمى بالمجامع الفقهية

مثلا في الأزهر وجد ما يسمى بمجمع البحوث الفقهية، ويحوي نخبة العلماء ويبحثون فيما جد من المشكلات.

وجدت منظمة المؤتمر الإسلامي تبنت مؤسسة تسمى مجمع الفقه، ومركزها في جدة.

مجمع فقهي منبثق من الرابطة الإسلامية بالمدينة المنورة.

مجمع فقهي بالهند وبضبط باكستان.

المجامع تضم علماء أفذذ في الانضباط و الاستقامة مهمتهم البحث في أمور، لم تكن موجودة في العصور السابقة. ونتيجة للاجتهاد الجماعي فإنه كثيرا ما تخرج هذه المجامع بقرارات تضم أحكام فقهية سليمة.

مثلا: طرحت مسألة موت الدماغ من قبل الأطباء لمدة معينة، ومال كثير من الأطباء أن هذا موتا حقيقيا، ويمكن أخذ عضو منه لشخص يكاد أن يموت. وبعد البحث في الموضوع اتفق المجمع

بعد الاتفاق الجماعي)أن موت الدماغ نذير موت محقق لكنه ليس الموت المحقق) وهذا نفسه قاله العلماء السابقون)أنه لا يجوزأن نحكم بزيد من الناس أنه مات إلا إذا تكامل موته تماما). وهناك أيضا إمكانية التباس الأطباء بين موت جدع الدماغ أو قشر الدماغ أو ما إلى ذلك. ومادام الأمر هكذا يأتي مبدأ سد الذرائع. ولا نحكم بالموت نتيجة موت الدماغ الذي هو نذير موت.

مثال آخر: ما يتعلق بنقل الأعضاء، أيضا هذه المجامع درست الموضوع بأشكاله وصوره مثل نقل من حي إلى حي أو من ميت إلى حي، كلها أمور بحثت بحثا دقيقا جدا بالاجتهاد الجماعي، والرجوع إلى أحكام قديمة منها في مسألة الإيثار متى يكون مشروع، ومتى يكون ليس مشروعا.

مثال ثالث: في الاقتصاد الإسلامي حيث أن معظم الفقهاء في هذه المجامع نبهت الاقتصاديون أن الاقتصاد الإسلامي هو المنقذ لبلاء الاقتصاد الغربي، و الآن الغربيون أنفسهم يعترفون بذلك. ولن يحل لهم مشاكلهم لأنه اقتصاد ينهض على الأخلاق في التعامل التي تنهض بدورها على العقيدة.، عندها فقط تحي القواعد الاقتصادية كالجسم الذي يسري فيه الحياة، والدليل أن الاقتصاد الإسلامي نجح فيا لعالم الإسلامي. وهناك أخطاء سببها أن هناك من لا يريد النجاح لهذا الاقتصاد.

ودليل على ذلك أن المجامع الفقهية طرحت كل المبادئ الاقتصادية التي تتعامل معها المصرفية الغربية، وقيدت بضوابط فقهية إسلامية كاملة بكل معنى الكلمة، والشريعة الإسلامية تتبنى المصالح وتضع لها طرقها الآمنة السليمة. وهناك من يدير المصارف الإسلامية بنية سيئة، لهذا نجد أنها لا تحقق أرباحا، لبعدهم عن التعرف على الفقه الإسلامي.

(الدرس 38)

. من أفضل الكتب التي ينصح بقراءتها، والتي وجهت أنظار علماء الاقتصاد وغيرهم إلى الاقتصاد الإسلامي كتب)أحمد عبد العزيز النجار)وهو مصري رحمه الله تعالى له سلسلة عنوانها)بنوك بلا فوائد)و)نحو إستراتجية اقتصادية إسلامية)و كتب)سامح مود)كتاب)الاقتصاد الإسلامي)وهو أُرْدُنِي.

كان)أحمد عبد العزيز النجار)موجود في عصر)عبد الناصر)، وكان يعلن دائما أنه بصير بالمبادئ الإسلامية الاقتصادية التي تُغْنِي عن الاقتصاد الربوي، والذي يحرر العالم الإسلامي من رق التبعية للغرب، ولم تكن الحكومة المصرية تلتفت إليه، وأخيرا بدل جهدا أن تحدد له مصر رقعة صغيرة

من مصر ليقدم تجربته الاقتصادية في تلك البقعة، ووافقت الحكومة وفيها أقام النظام الاقتصادي الإسلامي.

أولا: انتزع الثقة من أناس مسلمون وبين لهم أنه بصدد أن يقيم مصرف إسلامي يحقق الأرباح المالية الإسلامية الطاهرة النقية بعيدا عن الربا ونحو ذلك، دخلت الثقة في قلوب الناس،

ثانيا: قدم الناس أموالهم و بنا بها تجربته ونظامه الإسلامي وفق كل النظم التي يحتاج إليها الإنسان، وخلال سنتين بنا معمل للكرتون وأخر لطوب، وقدم أرباح كبيرة لأصحاب هذه الأموال، بعيدا عن المغامرات الربوية وسجل ذلك في محاضر. وهناك علماء من ألمانية جاءوا إليه بعد سماعهم لمشروعه، جاءوا لدراسته، وأحدهم ألف كتابا يتحدث عن هذه التجربة.

ثالثا: قدم تجربته للحكومة المصرية من أجل أن تعمم، ولكن المسئولون لم يوافقوا على ذلك، وقالوا لابد أن يلوث التعامل المالي بربا ولو واحد بالمائة. وكان مصيره أن أخرج من مصر ليعيش بقية أيام حياته في أماكن أخرى.

وظائف الإفتاء:

وجود وظيفة الإفتاء في البلاد العربية والإسلامية هذه من المظاهر الإيجابية في خدمة الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي. وهذه الأهمية بسبب كثرة العوام، وإن كان مثقفا لا يستطيع التعرف على أحكام الشريعة في كثير من المسائل، هنا لابد من الرجوع إلى المفتين.علماء الشريعة تحدثوا عن وظيفة الإفتاء وعن المفتي وشروطه وقالوا:

ـأن المفتي في الأصل أن يكون مجتهدا ضمن مذهبه على الأقل، ويمكنه ترجيح الأقوال وغيرها مثل الإمام السبكي

ـ هناك مفتي مَجَازًا حيث أنه ليس بمجتهد ولكنه ناقل.

لكن الحقيقة في الواقع الإسلامي فإن وظيفة المفتي تحولت إلى وظيفة شكلية، حيث أن المفتي في كثير من الأحيان يتحرك في نطاق سياسة الدولة التي هو فيها. ومن ثم يتبوأ مركز الفتوى من هو ليس أهلا له نهائيا، وكثيرا ما يكون ليس فقيها.

المفتي عليه أن يشعر بثقل المسئولية الملقاة على عاتقه إنها مسئولية الأمانة على شرع الله بنقل الأحكام لمن غما

عليه،لهذا عليه إما أن يسكت ويقول لا أعلم، كما قالها الإمام مالك رحمة الله عليه لسائل جاءه من المغرب

إلى الحجاز مقدار أربعة أشهر وأكثر مشيا، أو ينقل الحكم على علم.

ـ القاعدة تقول أن مذهبك مذهب مفتيك، لو كنت شافعيا وحلت مشكلتك من مفتي حنفي اتبعه. وهذا من تيسير الله سبحانه وتعالى.

الفرق بين الفتوى والقضاء:

ـ المفتي مُعْلِمْ لحكم الله تعالى عندما يسأل عنه، وليس له أن يتجاوز هذا الحد.

القاضي هو منفذ، وقد يرجع إلى المفتي في أمر ما لتنفيذه. لقد كان القضاء منفصلا ومستقل عن الدولة في عصر هارون الرشيد، وأوجد منصب قاضي القضاة. وهكذا الشأن إلى اليوم.

تم تلخيص دروس (تاريخ التشريع الإسلامي) بحول الله تعالى ومنه وعونه وفضله، وهذا ملخص الدروس كلها أتمنى أن أنال به أجر نشر العلم، ويتقبله المولى خالصا لوجهه الكريم، وننال به شفاعة شيخنا وأستاذنا رحمة الله عليه وجزاه على ما قدمه للأمة الإسلامية خير الجزاء.